الفصل الثاني

البُعد الفكري

obeikandl.com

obeikandl.com

النظام العالمي

سؤال: كيف ينبغي تفسير مشكلات النظام العالمي ومواجهتها؟

الجواب: كلٌّ يتناول هذه المسـألة ويقيّمُها في ضوء رؤيته ووفقَ تفسـيرات شتّى؛ وهذا أمـر طبَعِيّ جـدًّا؛ فتجد أنّ مـن ذاقوا ويلات الشـيوعيّة قـد يرتضون الشـوفينيّة طريقًا للخـلاص فيتوجّهون إليها؛ فمعظم الشـعوب في آسيا مثلًا تتّجه اليوم إلى تاريخها القديم، وإلى قِيَمهـا وأخلاقها الخاصة بها؛ وبهذا أمكن تقييم ما اسـتجدَّ اليوم من تغيُّرٍ لدى الروس والأوزبك والأذريّين...

وثمّـة تغيُّـرات مختلفـة بالمعنى نفسـه تحـدث اليوم فـي أماكن أخـرى من العالم؛ وهـي "تغيُّرات" و"تكوُّنات" طبَعيـة طالما أنها لم تضرّ بغيرها؛ وإذا عُثِر على السـبل والأساليب التي تجعلها أكثر نفعًا وفائدة فهذا يضمن ألّا يُسقَط في أيدي البشرية لاحقًا.

إن بعض تلك التغيّرات تتمحور حول الدين؛ ونرى لهذا الضرب مـن التغيـرات فعالياتٍ منظَّمـةً أو متفرقةً في عدة أماكـن في العالم، وهـذا ليـس كغيـره؛ إذ إنّـه يُنظَـر هنـا في كل مسـألة إلـى أن "الدين هـو الأسـاس"؛ ولهـؤلاء رغبـةٌ طبعًا باسـتغلال اضطـرابٍ كهذا في تحقيـق رؤيتهـم، ووضـع الناس فـي الموضـع الـذي يقتضيه الدين؛

ومـن الطَّبَعـيّ في مصالح القوى التي احتلَّت العالم عدة مرات حتى الآن أن تسعى للاستفادة من مرحلة إعادة الهيكلة هذه.

فهـل هنـاك توافق تامّ بيـن تلك القوى؟ كلّا، ألبتـة؛ غير أن هناك قناعة سـائدة بأنهم يسـعون من أجل التفاهم والاتفاق والاتحاد فيما بينهـم مـا أمكن؛ ومعلومٌ أن رؤية إنجلتـرا لهذا الموضوع لا تختلف عـن أمريـكا. نعـم، ربما اختلفـت آراؤهـم قليـلًا في "سـراييفو" غير أنهـم على خُطـى أمريكا ماضون... وقد يبدو أحيانًا أن لفرنسـا آراءً مختلفة، ومردُّ هذا عجزُها عن تحصيل حصّتها كما تتمنّى في عملية إعادة الهيكلة والتكتّل الجديد، ولا شـكّ أن هناك محرومين آخرين ينزعجون الآن...

وثمـة دول لا يُـدرَى أهـي منزعجة مـن الوضـع الحالـي أم لا؟ وفهـمُ موقفهـا متعـذرٌ تقريبًا كمـا الأمـراض التي يصعب اكتشـافها وتشـخيصها؛ علاوةً علـى أنهم لا يرغبون أيضًا فـي محاصَّة الغنيمة العامـة، ولا يتضـح ما الـذي يريدونه الآن؛ إنهم يتمنون "السـلم في العالم أجمـع"... يتمنون لو أن العالم أجمـع يعيش في أمن وسـلام، والواقـع يُظهر أن الأمر ليس كذلك.

هـذا ولكلِّ مجتمـع تغيُّرٌ داخليّ ينتظره؛ وبدهيٌّ أن توقيت ظهور أمل كهذا يختلف من دولة إلى أخرى، ولا شـك أنه سـيختلف؛ لكن يتعـذّر تنـاول كل دولـة وتحليلها علـى حدة، فلنذكـر بعض مطامح مجتمعنـا فحسـب: إن مجتمعنا يَقِـظٌ، فَطِنٌ، ذكيّ، ويومًا ما سـيتبنّى التغيير الأنسب لماهيته مصغيًا إلى صوت ضميره وحدسه، وسيحقِّق

هـذا التغيير، وقد نتجَ عن شـعورِ أهل بلدنـا بموقف كهذا اختلافاتٌ فكريّة، وأرجو أن يكون أربابها جميعًا مخلصين فيما يقولون ويفعلون ولمصلحة الدولة يعملون، ولنسـلِّمْ بأن هذا القدر من الاختلاف في الرُّؤى والتصورات طبعيّ جدًّا، بل له وجهٌ مفيد.

هـذه نظـرة عامّـة، وهلـمَّ -إن شـئـت- إلى ملاحظـةٍ فنيّةٍ يسـيرةٍ في هذه المسـألة: يسـتحيل إقامة عالم بالمسـتوى المنشود بالحرب والضرب وسـفك الدمـاء، ولو حدث لاسـتحال أن يحظى بالقبول، ولـم يغيِّر هذه النتيجةَ إلبـاسُ عمليات العداء والاحتلال التي وقعت بالأمـس لباسًـا آخَر مموَّهًـا تمويهًا لا ينطلي على أحـد اليومَ. أجل، لقـد غدا "الصليـب" المعتدِي الوحيد بالأمس رفيـق "الهلالِ" اليوم، وما زال الأمرُ هكذا؛ وهذه الفعال القبيحة المُرائية ستنال نصيبَها من خلال ردود الفعل والاعتراض على كلِّ ما هو سيئ، فمن المفيد أن نكرّر بشكل واضح قاطع أنّ كلَّ نظام يُقام باستخدام القوة الغاشمة سرعان ما ينهار، وأول من سيرزح تحت أنقاضه صانعوه.

ولعـلّ أبرز مثـالٍ على ذلك كوريا وفيتنـام والخليج والصومال؛ لكنَّ نماذجَ ردود الفعل القادمة سـتكون أشـدّ من هـذا؛ إذ إنّ ما في قاعـدةِ العالم الإسـلامي اليوم من تعاطف مـع العوالم الأخرى بدأ يتلاشـى وتحلّ الكراهية محلَّه، وستستمرّ تلك الكراهية على أشدّها ما لم يغيّر الطرف الآخر سـلوكه السلبيّ؛ ودول "الطرف الآخر" كما نسـميها تدرك هذا في الواقـع؛ لذا فإنهم رغم كلِّ شـيء قد يعرِضُون مشـاهد تُعَـدّ عندهـم نوعًـا من التنـازل، فلنقـل بصراحة -لا سـيّما

بعـد موقفنـا الأخير من إسـرائيل-: إننا مُنينا أيضًـا بنصيبنا الوافر من الكراهيـة، وربما تزلزلت تلك الثقة والمودة التي كنا نحظى بها لدى شـعوب العالم الإسـلامي وإن لم تكن موجودةً لدى حكامه؛ لذا من المتوقـع أن يزداد موقفنا صعوبةً، ولن نستطيـع أن نجذب مرةً أخرى ذلك العالم المُستاء حتى نكوّن الطاقة الهوائية الأكثر جذبًا وقوّة.

وفـي المثل "الجـزاء من جنـس العمل"، ومن بنـى على أنقاض ما هدم غارَ به وتحطَّم؛ واليوم لو تأمّلنا ما حولنا في ضوء قضيّة تكرّر الأحداث التاريخيّة لبدى لنا ما ينتظرنا في المستقبل أكثر وضوحًا.

أجـل، إن العالـم في طور إعـادة الهيكلة حتـى وإن لم يكن كما يصوّرونه اليوم، سـيتحقق هذا بلا ريب حين يحين وقته، غير أن مَن سـيضطلع بتحقيقه ليس من يقف على خشـبة المسـرح الآن بل من هم خلف السـتار يرتقبون نضج الأحداث، هؤلاء هم من سينشـئون عالمًا في مناخ من التسـامح والرأفة والمودة، بدلًا من عالم منصهر بالحقد والبغض... وفي هذا الطور من إعادة الهيكلة ستقبل الإنسانية راغبةً مُحبِّذَةً رؤيتهم.

فـإن أصحـاب العمل والجهد الذين رفعَهُـم الضمير المجتمعي العـام على عرش القلوب بانشـراح وسـرور سـيخلّفون آثـارًا باقية، وسـتخلد آثارهـم على مر العصور والأزمان ولو صـاروا رُفاتًا، إنني علـى يقيـن أنّ مـا ينبغي القيام به اليوم هو هـذا الضرب من الخدمة، وعلى قناعة تامّة بأنّ أحلام المسـتقبل الربيعية العطرة لن تتحقق إلّا فـي ظلّ مثل تلك الجهود والأنشـطة؛ لـذا أوصي إخواني وأصحابي

المقرّبين أن ينهضوا بأعمالٍ وأنشطة مفيدة خالدة، لا بجهودٍ موسمية يسـيرة مؤقّتة لا تَعِدُ بمستقبل، بل إنني لن أتوانى عن تكرار النصائح نفسها ما دام فيّ عِرْقٌ ينبض.

obeikandl.com

نفحات البعث في العالم

سؤال: في ضوء التطوّرات الراهنة كيف ترون عمليات الإحياء للقيم الأخلاقية والروحية؟[٢٢]

الجواب: للمسألة وجهان: أحدهما خاصٌّ بنا، والآخر لا طاقة لنا به، فمن الوجه الأوّل نقول: لا بدّ من تنفيذ هذا الأمر لله استجابةً لأمره فحسب، وإذا لم يكن ابتغاء مرضاة الله تعالى وإعلاء كلمته وراءَ ما يَقضّ مضجعنا ويَذهب بمهنئنا ويحول بيننا وبين اللذات ويرهقنا ذهنيًّا وجسديًّا، فإنه يذهب سُدًى. أجل، إن إخلاص النية هو روح كلّ عملٍ فعلناه أو سنفعله، فإن غابت هذه الروح لم تعد لأعمالنا أية قيمة إيجابية ألبتة.

يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾ (سُورَةُ الأَنْفَالِ: ٨/٢٤). أجل، إنها مسألة إحياء، ومسألة بعثٍ وانبعاث، ويمكن أن يتجلّى هذا الانبعاث من خلال الدين بأن يغدو روحًا للحياة كما نصّت الآية.

(٢٢) جمع هذا السؤال من حديث جرى في شهر يونيو عام (١٩٩٤م).

obeikandl.com

ولا ينبغي أن نخلط رغباتنا وتطلعاتنا الخاصة بما نضطلع به من أعمالٍ يُبتغَى بها رضوان الله أي نيلُ مرتبة الرضا التي هي أعظم المراتب: فمثلًا قد نرى أن حقيقة دخول الكافرين جهنمَ تؤدّي إلى اكتئابٍ جزئيّ لدى بعضٍ من ذوي النفوس الحسّاسة؛ وهذا خللٌ في الموازين، وهكذا الحدود الشرعيّة قد نضيِّق نطاقَها بدعوى القضاء على البغاء الممقوت بل قد نفكّر في تقييد بعض الحلال، وكلّ هذا يُخلُّ بالتوازن؛ فالذي لنا وعلينا هو تنفيذ ما أُمرنا به في حدود ما نُؤمر ونُكلَّف به فحسب.

أمَّا ما لا طاقة لنا به فهو هداية الناس جميعًا لرسالتنا، إنه أمرٌ يفوق قدرتنا، بل ليس من شأننا، فهدايتهم أو عدم هدايتهم موكولٌ إلى الله ﷻ، إن حظيت أحاديثنا بالقبول علينا أن نعرف ونعتقد أنَّه لا يد لنا في ذلك قطّ، فهو ليس ثمرة ذكائنا ولا معرفتنا ولا مهاراتنا، وإنما هو لطفٌ ربانيّ، أمّا إن لم نحْظَ بحسن القبول فلنراجع أنفسَنا ونحاسبها، لنمحِّص مشاعرنا ونياتنا وعباداتنا؛ لنراقب أنفسنا ونحاسبها دائمًا، ولا نيأس ألبتة، فكم من قاماتٍ باسقة وعمالقةٍ في الفكر والمنطق لم يتبعهم إلا بضعة أشخاص قلائل، وكم من أهل الإلهام والواردات عبروا من هذه الدنيا ورحلوا عنها ولم يتبعهم إلا قليل أو لم يتبعهم أحد؛ فالإيمانُ نورٌ يقذفه الله تعالى في قلب العبد، فتنوير القلب بذلك النور أمرُهُ إليه وحده سبحانه، فهو وحده منوِّرُ النور.

obeikandi.com

ثم إنّ هذه الخدمة خاصَّة برسول الله ﷺ ابتداءً، ثم حمَلَها فردٌ ذو قوة قدسية، وارثٌ للمنهج المحمدي في القرن العشرين، الكتابُ والسنة مصدره، والحكمةُ مسلكُه، بنى حياتَه على ذلك ليمثِّل الحقيقة الأحمديّة، ثم سار بعناية الله تعالى في هذا الطريق، ولم ينسب إلى نفسه شيئًا، بل لطالما كان يُحاسب نفسه قائلًا: "يا نفسي المرائية! لا تغتري قائلةً: إنني خدمت الدين؛ فإن الحديث الشريف صريح "**إِنَّ اللهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ**"(٢٣)، فعليك أن تَعُدّي نفسِك ذلك الرجل الفاجر، لأنكِ لستِ مزكّاةً(٢٤)، وأمضى عمره يحاسب نفسه ويراقبها ويقول لها: "لا تَرَي نفسَك مظهرًا لتلك المحاسن وتلك الطيبات؛ فيا نفسي لا تقولي إنني مَظهر الجمال؛ فالذي يحوز الجمال يكون جميلًا، كلا إنك لم تتمثلي الجمال تمثلًا تامًّا؛ فلن تكوني مَظهرًا له بل مَمَرًّا فحسب"(٢٥).

وجاءت الأجيال اللاحقة فألفَتْ أنفسها في ربيع هذه الخدمة الجميلة، وباتت تنتظر قائلةً: تُرى هل يكلفنا المولى بشيء أيضًا؟ فإذا بالحق تعالى يستعمل عباده مرّةً أخرى في أمرِه، فإنّ ما نراه اليوم ما تحقق إلا بمحض عنايته ولطفه سبحانه، ويمكن أن يقال: إنها ثمرات قد تَفُوق سعي الأقطاب، وجهد المقرّبين، ومساعي الأبرار.

إذا الحقُّ تجلَّى يسَّر الأمرَ
وسبّب الأسباب وأجزل الأجرَ

(٢٣) **صحيح البخاري**، الجهاد، ١٨٢، القدَر، ٥؛ **صحيح مسلم**، الإيمان، ١٧٨.

(٢٤) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **الكلمات**، الكلمة السادسة والعشرون، الخاتمة، ص ٥٤٣.

(٢٥) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **الكلمات**، الكلمة الثامنة عشرة، المقام الأول، الملاحظة، ص ٢٤٨.

ولا يُتوقــع مثل هــذا الأمر من أناسٍ بعضُهم عليلُ المزاج، كُتب لهـم أن يسـيروا في هذا الطريق الذي نسـأمه أحيانًا ونهـمّ بالهروب والفرار منه، ثم ندرك تفرّق غيره من السبل وضلالها فنعود إليه ثانيةً؛ ولو تنزّلَتْ نفحاتُ التشـريف والإحسـانِ بإخلاص قوم وجِدّهم لِما يضطلعون به من أعمالٍ، فبدَهيٌّ أنَّ الله تعالى هو مَن فَعَلَ كلَّ شيءٍ؛ فعلى المرء ألا يعكِّر هذا العملَ بتشوّفاته المستقبلية وأوهامِه وغيرها من خواطر مختلفة، وألا يُفسِدَ بسيّئِ رغباته كثيرًا من ثمار جَنْيِه، فإن صفـا العمل ولـم يُدنَّس فقد تُحقِّقُ لنا النجاةَ في الآخرة أنواع العناية واللطف التي ما زالت تُمطِرنا زخًّا زخًّا، ونبعُ اليمن والبركة والخير هذا من شـأنه أن يسـدّ حاجات الأجيال القادمة المعنوية والأخروية، فإن دنسناه تعذرت الاستفادة منه حالًا ومآلًا.

ينبغـي أن نُعنَـى بهـذا، وأن نراقب أنفسـنا ونحاسـبها، نفعل هذا ولا نفتأ نراقب أنفسـنا، ومن شـأن سـحائب اللطف التي تتنزل علينا زخًّـا زخًّـا أن تُحـرّك وتُوقظ شـعورَنا بالعبودية أكثر ممـا نحن عليه الآن، فتتعمق عباداتنا أكثر فأكثر، وتغدو سـجداتنا بابًا للوصال برب العالميـن لا نبرحه أبدًا؛ فبالشـكر تدوم النعم وتـزداد، أمّا إن كنا نهذّ صلواتنـا هـذًّا، وتجرفنـا فلتات مشـاعرنا الشـهوانية، ولا هـمّ لنا إلا الأجوفان، فهذا -نسـأل الله السـلامة- يعكِّر صفو الخدمة في سـبيل الله.

التاريخ في دورانٍ دائم

سؤال: إذا كان التاريخ يعيد نفسه فما نمط الصورة البارزة للعِيان عند تأمُّل الأحداث الجارية في العالم؟

الجواب: يمرّ العالَم كَرّةً أخرى في شبكة أزماتٍ معنويّة. أجل، إن الله يُزلزل العالَم مرّةً أخرى؛ وكما أنّ لأمريكا وألمانيا أكثر البلاد رفاهيةً واستقرارًا نصيبًا من ذاك الزلزال، كذلك الدول الأخرى على التسلسل وفقًا لأحوالها ومواقفها، وكذا تركيا أيًّا كان نصيبها.

وسقوط العالم مرّةً أخرى في الأزمات إن هو إلّا نتيجةٌ، ما أكثرَ أسبابها! بل يتعذر إحصاؤها، ومنها:

١- نقص جوانب في القيادة لدى حكّام العالم، ومقصودُنا بمصطلح "قائد" مذكورٌ في مقالة "القائد"[٢٦]؛ فللقائد سمات وخصائص ضروريّة، وعند تأمّل المعايير المذكورة في هذا المقال يتبين كم يعاني العالم من الفقر إلى القائد والحرمان منه؛ وهذا أمر مستشرٍ مرعب لا يجوز الاستخفاف به في هذه الأزمة والضيق العالميّ المُطبِق.

---

(26) Fethullah Gülen, Çağ ve Nesil-4, Zamanın Altın Dilimi, Lider, Nil Publishing, 2012- İstanbul, p. 213-216
(لما يترجم بعد).

٢- إدارة اقتصاد العالم من قبل الجهَلَة للحياة الاقتصادية هي سوءُ طالعٍ يُنذِر البشرية، فالإنسانية تتلوّى الآن من هذا النحس، ويا عجبًا لخطإٍ يعرفه الناس جميعًا اليوم ويُكتب له البقاء مدةً أخرى رغم كلِّ شيء!

٣- الإسراف من أهمِّ الأسباب في رأيي. أجل، إنه يسيطر على الدنيا بأسرها اليوم، وحيث يطغى الإسراف فمن المحقّق والمقدّر طبعًا أن تُفتقد مقوِّماتٌ مهمّة، وفقدُها يزجُّ بالدنيا في أُتُونِ أزمة فأخرى؛ لقد كان عيش الناس قديمًا الكفاف، وهذا معيار كل شيء عندهم، سواءٌ في ذلك الغذاء الذي يشترون أو الملابس التي يرتدون أو الأمتعة التي يستخدمون، ومنتهى آمالهم أن يكونوا أثرياء بمشاعرهم وأفكارهم وثقافتهم؛ فانقلبت المسألة اليوم رأسًا على عقب.

ومعنى الإسراف الجهل بقدْر نعم الله وقيمتها، وتبذيرها وتبديدها؛ فظهور الإسراف في مكان يجلب "القحط" معه، وربما يظهر هذا في صورة انقطاع البركة، ولما تطرَّقَ لهذه المسألةِ الأستاذُ بديع الزمان عُنِيَ بالمسألة نفسِها فقال: "الاقتصاد سبب البركة، أما الإسراف فهو ذريعة لانقطاعها"(٢٧).

ويمكن سرد أسباب كثيرة للأزمة، غير أننا لن نقف عندها كثيرًا لنتناول الموضوع من زاوية أخرى. أجل، زُجّ بالدنيا كَرّةً أخرى

(٢٧) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **اللمعات**، اللمعة التاسعة عشرة، النكتة الأولى، ص ١٩١.

فـي هـوّة أزمةٍ روحيّةٍ، والتاريخ يعيد نفسـه، فالأنفـع تناول المسـألة في ضوء فقهنا لمعنى قولهم "التاريخ يعيد نفسه":

أجـل، التاريخ مليء بالأحـداث المتكرّرة، لكنها لا تتكرّر بعينها بـل بمثلهـا وشـبهها، ولو كان الأمـر خلافَ ذلك لاتُّعـظ بالحوادث نفسـها، ولم تتكرّر الأخطاء نفسـها، فتكرُّر التاريخ تؤخذ منه العِبَر، وإن شئتم فانظروا من منظور كهذا إلى الأزمة التي يعاني منها العالم الآن.

ولطالمـا لوحظ في الأحداث التاريخية المتكررة أن شـدّة الحقّ تعالـى علـى النـاس وتضييقه عليهـم كان مفتاح الانفتـاح نحو آفاق جديـدة فيهـا مصلحـة الإنسـانية غالبًـا، وهـذا علـى مسـتوى الفرد والجماعـة، أي إنّ بلوغَ الأزمات الشـخصية الـذروةَ ينذر بأن الأزمةَ أوشـكت تنفـرج؛ ولطالما شـحذت الأزماتُ الاجتماعيـة المجتمعَ ووجّهتـه نحـو آفاقٍ جديـدة، ويحضرني هنا كلام جميـل يُعزى إلى النبي ﷺ: "اشْتَدِّي أَزْمَةُ تَنْفَرِجِي"(٢٨).

وبيـن الفـرد والمجتمـع تشـابُهٌ يكاد يغـدو تطابقًا، فلنبـدأ بالفرد لِتُمكنَ المقارنة: إنّ حالات الانبساط الشخصي قد تتبعها انقباضاتٌ وجدانيّـة وروحيّـة، وقد يتغير الحال وينعكـس؛ ومردّ أحوال القبض أحيانًـا إلـى بعـض الذنوب والغفلة، فيسـرح الإنسـان فـي مناخ من الفرح ويمضي حياته في اللهو، ثم تصيبه حالة من القبض عقابًا على ذلـك الفعل؛ ويبدو أن الروح تسـتجدي حالـةً كهذه، إذ زيادة الراحة

(٢٨) القضاعي: مسند الشهاب، ١/٤٣٦؛ الديلمي: مسند الفردوس، ١/٤٢٦.

والاسترخاء تُحدث أزمةً في الروح؛ فهي كثيرًا ما تنزعج من الأفراح الماديّة، وترغب في العيش في شدٍّ معنويٍّ نحو الآخرة.

إن يـد القدرة بتعريضها الإنسـانَ لحالة القبـض تُوقِظه من فتوره ودَعَتِه، وإنما ينزل الله تعالى بالإنسـان هذه الحالة ليردّه إليه سبحانه، وهـذا كالأمّ تضرب طفلها ضربًا خفيفًـا لتمنعه من الخطإِ، ثم تضمّه إلى صدرها.

وفـي موقـف كهذا تضيـق السـبل وتوصَـد الأبواب، وتتلاشـى الأسـباب واحـدًا تلـو آخـر، فيُعـرِض عنها الإنسـانُ ويُوجّـه وجهه نحو مسبِّب الأسـباب سـبحانه، فمقصد الحقِّ سـبحانه في الحقيقة ردُّ الإنسـان إليه؛ فلو أدرك الإنسـان السـببَ الحقيقيَّ لِما حلّ به من ابتلاء، ورجـع من فوره إلى الحقّ ﷻ لَتحقّقت له الغايةُ من الابتلاء؛ ويتطلّـب بلوغ هذه النقطة شـعورًا وفهمًـا وإدراكًا بأنه لا يحدث أمرٌ فـي الكـون كلِّـه إلّا بتدبيـر الله لا صدفـةَ فيه ولا جزاف، وقد أشـار الأسـتاذ بديـع الزمان إلى هذه المسـألة في الكلمـة الثامنة من كتابه "الكلمـات" عند حديثه عن قصة شـخصين سـقطا في بئـرٍ فرأيا فيها أشـياءَ غريبـةً، فأحدهما محـروم من البصيرة والنظر فيما وراء سـتار الوقائـع والأحداث، وأمـا الآخَر فمن أهل البصيـرة والدراية، فراح يحدّث نفسه في ضوء هذا قائلًا:

"هذه الأمور لا تُشبه الصدفة أبدًا، بينما كنت أجري في الصحراء كان هناك أسـد يتتبعني، فإذا بي أسـقط في البئر وأستمسـك بغصن إحدى الأشجار؛ وأرى فأرين أحدهما أبيض والآخر أسود، يقرضان

الشجرة من جذرها، وتِنّينًا فاغرًا فاه في الأسفل يترقّب لحظة سقوطي، وأسدًا في الأعلى يهدّدني بشكله المرعب، يستحيل أن يكون هناك من تعرض لمثل هذه الحوادث في آنٍ واحدٍ، واضح أن ثمّة أحدًا يعرفني خطّط لكلّ هذه الأمور من قبل، لكي تحدث معي الآن"(٢٩).

وهكذا ينبغي أن يفكر كلُّ من عرضت له حالة القبض، ويقول: "هذه الحوادث التي تُحكم عليّ قبضتها تُنزلها بي قوّة تفوقني، وما أنا إلا شخصيّة ثانويّة في هذه المسرحيّة"؛ ولا يكتفي بهذا فحسب، بل يتوجّه من فوره إلى من يسوق الحوادث إلى تلك الجهة، ويمسك بزمام عالم الخلق كلّه في قبضته ﷻ.

هذا حال الفرد، ومثله المجتمعات، فالمجتمع كالفرد، يُمسَك أحيانًا بمخلبٍ من حديد ويُشدُّ عليه، وتلك هي حالة انقباض المجتمع؛ والواقع أن نصيبنا من هذه الحالة بدأ ونحن على مشارف القرن التاسع عشر، إذ تتابَعَت الخسائر والإفلاس، خاصةً بعد "التنظيمات"(٣٠) فقد خسرنا في مواقف هي أدعى للكسب، وطالت حالة القبض هذه لأننا عجزنا أن نرجع ونتوجه إليه سبحانه، فطَرقْنا الأبواب الخطأ، وابتغينا المدد والعون من غير مظانِّه، فمثلًا ساد الولع بالفرنسيين زمنًا، وبالإنجليز زمنًا آخر؛ حتى إن عبارة "الدولة

(٢٩) انظر: بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **الكلمات**، ص ٣١-٣٢.

(٣٠) يطلق مصطلح "التنظيمات" على مجموعة الإصلاحات التي أدخلها السلطان عبد المجيد في عام (١٨٣٩م). وقد انتهى عهد التنظيمات بإغلاق مجلس النواب عام (١٨٧٨م).

العظمى" استخدمت في "الباب العالي"[٣١] كناية عن الإنجليز، فهذه العقدة التي تسللت إلى روح الدولة قد دبَّت في أرواح أفرادها فردًا فردًا، وأخذ كلٌّ نصيبه، وغدا عُرْضَة للاضطرابات.

ويومئذ عاش كلٌّ من الشعب والدولة حالة من الانقباض، ووقعنا دولةً وشعبًا في ضغط معنويّ وروحيّ كما يحدث للفرد في أزمات الضمير والفكر، واليوم تتكرر تلك الأشياء، غير أنها ليست مقصورةً علينا نحن فحسب، فالعالم جميعه يمرّ اليوم بأزمات مررنا بها قريبًا، فطبعي أن تتأثر بلادنا أيضًا بهذه الأزمات؛ ولا بد من دراسة هذه الفترة الحرِجة من زاوية تكرر الأحداث التاريخية كما ذكرنا، أي كما أن كل أزمة سبقت غدت بدايةً لحالة جديدة من الرفاهية والانفتاح، ستتحول أيضًا الأزمات الشدائد اليوم إلى جسر وراءه رَفَاه جديد؛ أليست وظيفتنا إذًا الإعداد لفترة جديدة من الطمأنينة والرَّفاه البشري؟

ويمكن تطبيق رؤيتنا لتكرّر التاريخ على فعّالياتنا العلمية والمعرفية الخاصة بنا، فمتى عرض لتلك الأعمال القبض خرجنا منه برفاه وبسطٍ حتمًا، وأصبحت مرحلة القبض منطلقًا لمرحلة جديدة؛ وعندئذٍ لنقل باطمئنان: إنّ الأشياء نفسها ستحدث وفقًا لمعيار التماثل: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (سُورَةُ الشَّرْحِ: ٩٤/٥).

---

(٣١) يطلق في الاصطلاح العثماني على مقر رئيس الوزراء أو مقر الحكم في الدولة العثمانية. وقد أنشأه السلطان محمد الرابع عام (١٦٥٤م)، وأطلق فيما بعد اسم المكان على ساكنه وهو يعني رئيس الوزراء، وكان للباب العالي أهيمة كبيرة في القرن التاسع عشر الميلادي وعلى وجه الخصوص في عهدي السلطان عبد العزيز والسلطان عبد الحميد الثاني. (سهيل صابان: **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض - ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص ٤٩).

حياتنا الثقافية ومتطلباتها

سؤال: ماذا تتطلّب منّا حياتنا الثقافية اليوم؟

الجواب: أهمّ وظيفة تقع على عاتقنا اليوم هي خدمة الحياة المعرفية لهذه الأمة، فلو عرقلنا هذا العمل المهمّ لتعرقل كلّ شيء، وأرى أنّ أضَرّ الرجعيةِ والتخلفِ والتأخرِ هذا الوضعُ، فعند التردِّي في وضعٍ كهذا من المتوقع ألا يُعنَى بقضايا العصر أو يُعنى ولكن بعد فواتِ الأوان؛ إنكم إن فقدتم روح التجديد مع الاعتصام بالأصول -أي القرآن والسنة واجتهادات المجتهدين الخالصة ودساتير الإرشاد والإخلاص- فلا تقدرون على تحليل المستجدات المتتالية تحليلًا صحيحًا، والتعرفِ على الألطاف الإلهية والتواؤم معها، وإذا بِكُم وأنتم تنوون الإرشاد كأنكم تدعون الناس إلى دهاليز مُظلمة قائلين: "هيا أيّها الإخوة -نحن الأربعة أو الخمسة- لنقرأ هنا من مناقب الصالحين"، فتتسلَّون بها، والحال أن الظروف قد تغيرت وأحوال العالم قد اختلفت، فها هي ذي القضايا الإسلامية ما عادت تُبحَث إلا في المحافل والمؤتمرات، فالمؤشرات الخاصة بظروف اليوم توجهنا إلى الجامعات والأكاديميات ومراكز البحوث.

واليـوم أمامنـا عـدة قضايـا يجب حلّها سـواء في مجـال العلوم الطبيعية أم في مجال العلوم الدينية، يقول مفكّر العصر بديـع الزمان وهـو يوقظ العصر بكتابه "المحاكمـات"، ويحفز الألبَّاء إلى التفكير: "أرى أن الأمة الإسلامية خاملةٌ منذ ثمانية قرون". فالعالم الإسلامي أجمـع لم ينشـأ فيـه عالم يلمّ بمشـكلات العصر خـلال مدة بلغت بضعة قرون.

نعـم، وإن توّجْنـا هاماتِنا ببعض علمائنـا وقدرناهم حقّ قدرهم، إلا أنّ هـذه العظمة مقصورة على نظرتنـا لهم، فوضعهم تيجانًا على رؤوسـنا ليس تعبيرًا عن العظمة الحقيقيّة؛ فالعظمة الحقيقيّة بأبعادها الحقّـةِ كانت فـي القرن الهجـري الأول والثاني والثالـث بل الرابـع أيضًـا، ويمكـن أن يتحقّق نحوها في يومنا هذا. أجل، حدثَ نوعٌ من الركـود في القرن الخامس الهجـري، فالمدارس النظامية كانت تبدو فيـه كأنهـا البدايـة والنهاية، فلنـا أن نقول: إن العالم الإسـلامي أخذ آخِـر ما أخـذَ من المدارس النظامية، ورغم أن هذا النبـع الأخير كان مصدر إلهامٍ لكثيرين بدءًا من الإمام الغزالي حتى فخر الدين الرازي، إلا أنـه بعـدَ ذلك تخلف عن هدفه السـامي وعجز عـن أداء الوظيفة المنوطة به.

واليوم: حدثت وسـتحدث عثرات وكبوات وتأخُّر في فهم أمورٍ تخـدم أمّتنـا، ومن المفيد عرض تقرير للتذكيـر بوقائـع كثيرة تعرض لكثيريـن في كل مرحلة نمر بها، فيتعثـرون ويتحتم عليهم تجاوزها،

ومردها إلى حياتنا الثقافية، بداية من تهيئة جوّ مناسب للطلاب حتى إنشاء النُزُل والمدن الجامعية والمدارس، وهذا كأنه تنويه بما يجب اتّخاذه من تدابير عند الدخول في تكتّلاتٍ متنوّعة.

أجل، حدث هذا حقًّا، احتدم الجدل فورًا وقامت القيامة عندما اقترح أحدٌ إنشاءَ نُزلٍ طلابي فقيل له: "لم يكن عندنا، أنَّى لنا هذا؟"، ولما اقتُرِح إنشاء مدارس اقتضتها الضرورة قال أناس: "هذه أمور لا تُعقَل ألبتة"، وشوّشوا العقول، وإذا ما ظهرت محاولات لإصدار صحيفةٍ أو مجلّة أو إحداث قناةٍ تلفزيونية أو جامعة ونحو ذلك، ودّ أولئك برؤيتهم وفهمهم لو يمنعون تلك الأنشطة الراقية.

فهذا الضرب من الناس لم تبلغ حياتهم المعرفية والفكرية والذهنية أن تدرك عصرهم، وتحجرت عقولهم في مراحل عصرية منصرمة؛ وأظنّ أن عددهم سيتضخم مستقبلًا، إذ ما أكثر من يصعب عليه منهم مواكبة سرعة العصر ذات البعدين: العلم والمعلوماتية، والواقع أنّ ثمة حاجة إلى أرواح ثورية لأجل المستقبل تطمح إلى التجديد بينما كانت مستمسكةً بالمبادئ الرئيسة، ومَن حُرِموا روحًا كهذه إما أنّهم في المستقبَلِ سيُغربَلون أو أنَّهم غيرَهم سيُعَرْقِلُون. نعم، ليس لأحد أن يستهين بإيمانهم وصلتهم بالله وبقضيّتهم، إلا أن مواقفهم تلك تجعلهم مستحقِّين بإطلاق لفظ "رجعيِّين" عليهم.

وأجزم أن هناك مبرِّرًا لما يقوله أهل الدنيا عنا. أجل، إن بيننا كثيرًا من الأرواح الرَّجعية، فهي عاجزة عن أن تكون ثوريَّةً متجدِّدة.

وجليٌّ أن الشيطان أوحى إلى أهل الدنيا بهذا المعنى، فهم يشعرون به ويطلقون علينا نحن كلمة "رجعيين" وإن لم يطلقوها على المسلمين الحقيقين، والمعيار في هذا لدى بديع الزمان أنَّه يقول: "إذا سرى فيّ شعورٌ منافٍ للإخلاص وإن قلّ عُذِّبت بيد أهل الدنيا كأنهم يمتلكون الكشف والكرامة"(٣٢). أجل، أهل الدينا مخطئون ظالمون قطعًا إذ يسمّوننا "رجعيين" بالمعنى الذي يرون، لكنّنا إذا نظرنا إلى المسألة من معاييرنا الحقيقية الذاتية يتبين أنّ في اتهاماتهم قدرًا من الصواب.

وما أودّ عرضه في هذا العرض المسهِب هو أن نسأل أنفسنا: هل نستطيع أن نمثِّلَ القرآن الكريم تمثيلًا يليق به في عصرنا؟ وأن نطبق ما في القرون الهجرية الأربعة الأولى على الأقل وفق ظروف عصرنا؟ فإن عجزنا عن جواب تلك الأسئلة بِنعم أوَليس ذلك -إحقاقًا للحقّ- تصديقًا لما يرمينا به قسم من أهل التعصّب للإلحاد، وأن الله يُجري ذلك على ألسنتهم؟ ويمكن النظر إلى هذا وفقًا لمعيار: "إن في كل حادثة يد الإنسان ويد القدر معًا، ولكن الإنسان يظلم من حيث السبب الظاهري، بينما القدر يعدل لأنه من حيث السبب الخفي الحقيقي لتلك المصيبة"(٣٣).

تأمّلوا: إن آخر كتاب فقهيّ أُلِّف في بلادنا على طريقة جمع آراء أهل الترجيح من الفقهاء -دع عنك تأليف أهل الترجيح أنفسهم-

(٣٢) انظر: بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **اللمعات**، اللمعة الثانية والعشرون، ص ٢٤٠-٢٤١.

(٣٣) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **الملاحق**، ملحق قسطموني، ص ١٧٨.

هـو كتـابُ "ملتقى الأبحـر" لإبراهيم أفندي الحلبـي الذي عاش في عهد السـلطان الفاتح وعمل إمامًا في جامع الفاتـح، وكتاب "الدُّرَر والغُرَر" لملّا خسرو في العصر نفسه، ومرّت عصور عليهما وتغيرت أشـياء كثيـرة جذريًّـا، وكان يجب إعـداد لجانٍ وتنشـئة متخصّصين يفقهون الواقـع، ولِعدَمِ توفّر ذلك راحت القرون الأربعة أو الخمسـة المنصرمة تصبغ عصرَنا بمثل صبغة السابقين وتُضفي عليه طابعهم، فالحقّ أننا استمسـكنا بأشياء معيّنة ثم عكفنا عليها دون تطويرها منذ سبعة أو ثمانية قرون.

وهذا لا يخالف احترامنا للسـلف الصالـح أوَّلهم وآخرهم، علينا أن نحترمهـم ونذكرهـم بالخيـر رضي الله عنهم بعـدد ذرّات الكائنـات، غير أن احترامهم يمكن أن يتحقق بالاقتداء بهم، فهم وَعوا أزمانهم في تلك الفتـرة التي مروا بها واجتازوها؛ ونحن مضطرون لاتباعهم واللحاق بهم.

وما سـبَقَ يمكن عـدُّه مقدمةً ومدخلًا لما سـيأتي: نحن ملزمون بالبحـث عن حلّ لمشـكلاتنا التربوية، والإسـهام في الحيـاة الثقافية للإنسـانية بتراثنـا الثقافـي ومفهومنـا الحضـاري الأصيـل؛ فإنشـاء الجامعات والمراكز البحثية مهمّ جدًّا، ففيها سيقوم العلماء بالتحقيق والتفسـير والتحليـل لـكلِّ ما قيل فـي العلم حتى اليـوم، ويصوغون العلوم من جديد، وإلا فلن نتخلّص من هذه الازدواجية.

وأودُّ أن أشـير بالجملـة الأخيـرة إلى هـذا الأمر خاصّةً: تسـتند العلوم الطبيعية اليوم بكل شُـعَبِهَا تقريبًا إلـى المادية الغربية، فالمادة

هـي الأسـاس عنـد الغـرب، والانفجـار الأول ومبـادئ الديناميكية الحراريـة حقائـق لا جـدال فيها؛ ونحـن عندما نقول شـيئًا فوق هذا مستندًا على حقائق دينية نكون كأننا نرقـع ثوبًا خلقًا؛ وقد اضطلعت مجلات مثل "سـيزنتي (الرشـحة)"، و"ظفر"، و"سـور"(٣٤) -شكر الله سعيها جميعًا وأجزل ثواب كل من عزّزها ودعمها- بخدمات جليلة في هذا المجال.

ثمّـة حقيقـة لا ينبغـي أن نتجاهلهـا: إنّ مردَّ كلّ تلـك التقييمات يرجـع إلى إيجاد تركيبة مع الفهم الغربي للعلم، وهذا أمرٌ مصطنعٌ حتمًـا، وليس هـو التقييم الحقيقي المنشـود، ومن المؤسـف أننا لم نسـتطع بلوغ هذا المسـتوى حتى الآن، فلم تؤسَّس العلوم التطبيقية وفق أرضية سليمة من زاوية معاييرنا.

إن بعـض كتّـاب تاريـخ العلـوم مـن المسـلمين اليـوم يقدِّمون فَرَضيَّـات متنوّعة للوصول إلى نتيجة في هذا الموضوع، غير أن هذا لا يمكـن إذا كانـت هذه الفرضيـات تعتمد على تحصيـل العلم من الغرب أساسًـا ثم صَبغِه بصبغةٍ إسـلامية؛ وأظن أنَّه لا يمكن "أَسْلَمة العلـم" طالمـا ظـلَّ على الأرضيـة التي هـو عليها اليـوم، وقد يصل المسـلمون إلى نتيجـة إيجابيّة يومًا ما إذا ما فحصـوا معايير الغرب، وأخضعـوا اكتشـافاتهم للدراسـة المعمليـة والبحـث والتدقيـق من

(٣٤) **سِيزِنْتِي** (الرشحة): مجلة شهرية بدأت تصدر في فبراير/شباط (١٩٧٩م)، يكتب الأستاذ فتح الله كولن مقالها الرئيس، وهي مجلّة علميَّة، تقنيَّة، ثقافيّة، أدبيّة، تربويّة، اجتماعيّة، وما زالت تصدر حتى الآن.

مجلة ظَفَر (النصر): هي مجلة إسلامية علمية أدبية، بدأت صدورها عام (١٩٧٦م).

مجلة سُور: هي مجلة إسلامية علمية فنية فكرية. بدأت في الصدور عام (١٩٧٦م).

جديد، فالأرضية التي يُبنى عليها العلم اليوم أرضية خاطئة، وبلوغ الصواب من طريق خطإٍ أمرٌ مستحيل، فالمقاصد الصحيحة لا بد لها من وسائل صحيحة.

ولا بد لهذه المَهَمّةِ المُهِمّةِ من روح ثورية تجدّد النظر في كل أنواع الاستنباط والفكر الموجود الآن، ومنه المسائل الإسلامية، وتُخضِعُ كلّ شيءٍ -عدا القطعيّ في الكتاب والسنة- للتقييم وفقًا لهذا الفهم الجديد، وبهذا ستتخلص من الازدواجيّة العلمية، وهل يُعقل أن يرفض هذا؟! إن الكون كتاب مسطور بقدرة الله وإرادته ومشيئته وعلمه سبحانه، والقرآن الكريم بيان لكتاب الكون هذا، ولا تعارض بين هذين الكتابين أصلًا، وذلك هو الفهم الذي نطمح إليه، وعندما يتحقق هذا نكون قد تجاوزنا عصرنا.

إن الدراسات الأكاديمية أمرٌ لازم اليوم، ومن القصور قصر هذه الدراسات على العلوم الطبيعية والتقنية فحسب؛ فلا بد أن تدرج فيها فروع العلوم الإسلامية كلها مثل الحديث والفقه والتفسير وعلم الكلام؛ فيلزم الاستفادة من أعلى مستويات الإمكانيات التقنية، ففي الحديث مثلًا لا بد أن تُراجع كُتبُ الرجال مرةً أخرى، وينقد المتن وفقًا لمعايير علم المتون؛ فمن المحتمل أن بعض الأشياء لم تُلاحظ، والمتأخرون أمثال الدارقطني والحاكم والإمام البيهقي أثبتوا كثيرًا مما ذهل عنه في علم الرجال، وأدرجوا ذلك في كتبهم، وهذا لا يضير عظمة الإمامين البخاري ومسلم، وكذلك فما سينجز

اليـوم مـن أعمالٍ بالحواسـيب الآلية ربما يكون أسـلم وأصوب مما حدث في الماضي فيما أظن.

أجل، ليسـت المسـألة هي توجيه الناس إلى الجنة فحسـب، بل إنهـا فتحٌ لأبواب الدنيا كلها لتـؤدّي إلى الفردوس ونحن في طريقنا إلى الجنة، وهذا هو الأصل فيما أرى؛ ويمكن أن يتحقق هذا بالعلم والعرفان والفهم الإسـلامي السـليم الذي نورِّثه للأجيال القادمة، بل نجعلـه روحًـا للحياة، ونقدّمـه بغبطة تتجلّى في قبـول الناس جميعًا لـه، ولا يتـمّ هذا إلا بتناول المسـائل الإسـلامية كلّها على مسـتوى أكاديمي، وأضعفُ الاحتمالات أن الأفكار البسـيطة ووجهات النظر الساذجة قد تَعِد بشيء في هذا المجال.

لا يتـم إحيـاء ثقافتنـا والمحافظـة عليها حيّـة نشـيطةً إلا بأيدي أصحـاب الثقافة الحقيقية، وإن إعـدادَ من ينهضون بتلك المهمة أمرٌ يقـع على عاتقنا نحن.

obeikandl.com

وعي الصحابة

سؤال: كيف نستلهم وعي الصحابة ونحافظ عليه؟

الجواب: وعي الصحابة هو أفق الوعي، في مستهَل حديثنا ندعو الله تبارك وتعالى ونتضرع إليه أن يُبصّرنا بهذا الوعي لنستشعر حقيقته، وأن يجعل من وعينا بخدمة الإسلام معينًا لآلامنا متدفّقًا على الدّوام، وأن يُشيع بهذا الوعي نوى تلك الآلام في صدورنا، وأن يشغلنا عن أولادنا وعشّنا الدافئ بما فيه من راحة وسكينة حتّى ينعم الآخرون بتلك السكينة.

واليوم لو كنت أهلًا لابتهلت إلى الله الآن أن يهبني بذور هذه الآلام؛ فأطوّف بها في البيوت كلها، وأنثرها على صدور هؤلاء المؤمنين الذين يغطون في سباتهم ولا يستيقظون حتّى يتحسّروا ويتأوّهوا، فإذا ما باتت عقولهم تمتعض من تلك الآلام هبّوا من رقادهم، وطوّفوا في ردهات منازلهم ودهاليزها، فإذا رأيتهم حسبتَهم مجانين، ولستُ أرى النابهين الذين يصنعون المستقبل سوى هؤلاء المجانين.

obeikandl.com

بـل إنّ لنـا أن نذهـب إلى أنّه لا يكمل دين مـن لا يهمه أمر دينه أو من لم يُصَب بمسّ الجنون أسًـى له وحزنًا عليه. أجل، إننا لننشـد وعيًـا فـي مثل هـذا المسـتوى، والحق أنه شـاقّ؛ إذ الألـم مصدره، والتضجر صبغته، بيد أن ما جاءنا منه سـبحانه فأنعِم به وأكرِمْ، سـواء كان وردةً طريّة أو شـوكةً قويّةً، فإنعامه شائق، وقهره رائق، ولا ريب أن المكابدة والمعاناة في سبيل الدعوة أعذب من هذا كلِّه.

وتتصـدّر الرّاحـة والدّعـة قائمـةَ العوامـل التي تفسـد الإنسـان، وحيثما هبت رياح الفتور فثمّة نفر يسـترخون تحسـبهم أمواتًا كأنما غشـيتهم رياح السـموم، وبدهي أنّه لا يتسـنّى لنا فعل شـيء في هذا الصنف من الناس.

لا بد لنا من جوار صُهارة المعاناة ونيران الآلام في سبيل مستقبل شـعبنا ومصيره؛ فالجرانيت -كما تعلمون- يتشـكّل قريبًا من صهارة البـركان ويتصلَّب ثمَّة حيث يطوِّق الصُهـارةَ ويَحُولُ دون اندياحها، فـلا منـاص من أن نحيا فـي أُوار اللهب والنيران بـل حتّى في حمم البـركان، كلّ ذلك في سـبيل أمّتنـا وبلادنا وفكرنـا... وهذا هو عين الوعي الذي نبتغيه، لكن من أين السبيل إلى ذُرَى معاليه؟

لا أُخفيكـم أنّ بلـوغ مثل هذا الوعي دونـه خرط القتاد، بيد أنني سـأبذل وسعي لاسـتعراض شـيء من خصائصه وسـماته في بضعة محاور:

١- التفكر في الآيات الكونيّة: فلا بد من سبر أغوار كتاب الكون يوميًّا، وإجالة النظر في الوجود والحوادث على الدوام، ومراقبتها وتأمّلها عن كثب، فالتفكر مكّوك ينطلق بالإنسان ويجول به أرجاء الكون كلّه دَفعةً واحدة، بل إنه لَيمضي به قدُمًا لِيخبُرَ أغوار الحوادث والموجودات.

والتفكر ميناء يمخر من خلاله الإنسانُ عُباب الكائنات ليرسو على ضفاف الأسماء الحسنى فإذا بها تُسْلِمُهُ إلى مسمَّاها المقدّس، فيغشى دائرة الصفات في دهشة تغمره وحيرة تقهره، فإذا ما بلغ الإنسان تلك الرتبة اصطبغت مشاعره برضوان من الله وطاوعَت أفكارُه أوامرَه؛ وإن شئت فقل في تلك الرتبة إنها مرتبة "الفناء في الله"، ومن بلغ هذا المقام ألفيتَه يعمل لله، ويتحرك ويسكن ويأكل ويشرب في سبيله، ويطوّف في دائرةٍ يرضي بها ربّه ويبتغي بها وجهه.

إن مكّوك الفكر يرقى بالإنسان إلى الله صُعُدًا؛ لذا رُويَ: "فِكْرَةُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سِتِّينَ سَنَةً"(٣٥)، إذ إن العبادة ترقى بالإنسان إلى ربّه أفقيًّا، أما التفكّر فيقرّبه من الله ويرقى به إليه سبحانه عموديًّا؛ ومن هنا شبهتُ التفكر بالميناء والمكّوك؛ فالإنسان بالتفكر كأنّه صاروخ يرتقي قممًا، يبلغ آفاق سماء القرب الإلهي بلمح البصر، فتحفّه السكينة ويغشاه الاطمئنان.

---

(٣٥) أبو الشيخ الأصبهاني: **العظمة**، ١/٢٩٩.

٢- وردٌ دائم من الكتب المفيدة التي تفيض علينا بالعطاء والبركة على قدر صلتنا بها، وتخصيص وقت مبارك لقراءتها يوميًّا، وجعلها جزءًا من حياتنا.

٣- العكوف على قراءة الآثار التي استعرضت حياة الصحابة الكرام رضي الله عنهم للتأسّي بها، فهذا من شأنه أن يشحذ طاقتنا الميتافيزيقية الدافعة، ونستكشف به طريقنا نحو استلهامنا لوعي الصحابة، فهم الأسوة، وهم مشاعل الهدى، بل هم أشبه بالنجوم التي في السماء كما أشار إلى ذلك ﷺ بقوله: "**مَثَلُ أَصْحَابِي مَثَلُ النُّجُومِ، مَنِ اقْتَدَى بِشَيْءٍ مِنْهَا اهْتَدَى**"(٣٦)؛ وعليه، فمن لم يتجمّل بالصفات التي امتاز بها الصحابة الكرام من تطوّع ومحويّة وإيثار ولم يتحمّل ما كانوا يكابدونه من ألم ومعاناة، ولم يظفر بذاك الوعي الذي قامت عليه هذه الصفات جميعها فأنّى يُدرِك شأوهم أو يَعمل على شاكلتهم؟

هلمَّ لتشهدوا عامّة ما حاولت عرضه عليكم من خصائص هؤلاء الصحابة لا سيما إيمانهم وحركتهم التي بذَّت المعايير الإنسانيّة كلّها: تخيلوا في هذا المقام إن شئتم حياة عبد الله بن جحش أو سعد بن الربيع أو عكرمة بن أبي جهل الذي لم يُمضِ من حياته في الإسلام سوى سنة ونصف، أو عمه الحارث بن هشام، وإن الأماني ستنبعث فيكم إبّانها تترى فيما أرى، ولسوف تلهجون بلسان واحد: يا ليتني كنت مصعبًا أو ابن جحش أو حمزة أو ابن هشام أو عكرمة...؛ أولئك الذين أشفى بعضهم على شفا جرف جهنم،

(٣٦) القضاعي: مسند الشهاب، ٢/٢٧٥.

obeikandl.com

وبغتةً رأيناهم عانقوا الإسـلام بضـع دقائق في آخر رمقٍ من حياتهم وقالـوا: "بسـم الله، يـا الله" فعرجوا في لمح البصر إلـى أعلى علّيّين، فإذا ما عاينتم ذلك جاشت مشاعركم وتمنيتم أن لو كنتم مثلهم وقال قائلكم: "يا ليتني كنت معهم"، ولعل في هذه المشاعر كافّة ما يُلهِب مشاعركم، وتختمر به مِثلَ ما للصحابة من وعي لديكم.

٤- ومـن الأهميـة بمكان ارتيـاد محاريب العلـم والمعرفة التي تخـدم الإنسـانية حتـى يتسـنى لنـا الحفاظ علـى ذلك الوعـي الذي اكتسبناه، فليس الخبر كالمعاينة، فلربما كانت المعاينة أوقـع أثرًا عند كثير من الناس، وهناك أمثلة ونماذج كثيرة على هذا، ولذا فلو شعرنا بضعـف فـي طاقتنا الميتافيزيقية الدافعة فما علينا إلا اللجوء إلى مثل هذا الحلّ، والعمل على تجديد وإنعاش هذا الوعي.

openkamal.com

وجهة نظرنا إلى الماضي

سؤال: يقال إن مبدأ "الدولة من أجل الدين" في عصر الخلفاء الراشدين تحوّل إلى فلسفة "الدين من أجل الدولة" عند الأمويين والعباسيين والسلجوقيين والعثمانيين؛ وهذا القول محاولة لجعل هذا التحوّل مصدرًا لكل الصراعات العسكرية والاجتماعية والسياسية؛ تُرى هل نعيش وتيرة كتلك في يومنا هذا؟

الجواب: إن جميع ساداتنا من الخلفاء الراشدين أصحابُ قيمٍ وفضائل تفوق وتسمو على غيرها، وهم أسمى وأجلّ من أن نقيّمهم وفق معاييرنا نحن؛ ومن يفنّدون الأحاديث الشريفة في يومنا هذا ربما ينقدون الصحابة بل الخلفاء الراشدين أيضًا، أمّا نحن فنقول في قضية كتلك: "اللهم عافنا في أفكارنا وألسنتنا"، ونضرع إليه سبحانه أن يُعيذنا من شرِّ ألسنتنا.

نعم، حظيَ سادتنا الخلفاء الراشدون بأعلى مرتبةٍ، إلا أنهم ليسوا سواءً، والصحابة الكرام الذين جاؤوا من بعدهم -وكلهم سادتنا وأرواحنا فداء لهم- ليسوا أقطابًا لفلكٍ واحد؛ فصُحبةُ سيدنا أبي بكر رضي الله عنه لرسول الله ﷺ معيةٌ مكللةٌ بمعية الله؛ أي إنّ هذه المعيةَ كانت أيضًا مظهرًا من مظاهرِ معيةِ الله تعالى.

أما سيدنا عمر رضي الله عنه فقد كان قامةً فريدةً بفنائه عن ذاته وتواضعه، شديدًا على الكفار، متواضعًا مهيض الجناح مع المؤمنين... وكان أيضًا ممثّلًا للعدالة والحقّ والاستقامة أيّما تمثيل. نعم، إنّ سيدنا أبا بكر أفضلُ إلا أن سيدنا عمر يفضله بفضائل خاصّة والقاعدة أنه :"قد يتقدَّمُ المفضولُ على الفاضلِ ببعض الفضائل". أجل، أقول وأؤكد أنّه قد يتقدّمُ المفضولُ على الفاضل في بعض الأمور؛ وهكذا سيدنا عثمان رضي الله عنه، كان يتقدّم غيره بعفته وعصمته.

وهذا سيدنا عليّ كرم الله وجهه، سلطان الأولياء الحيدر الكرار، صهر النبي المختار صلى الله عليه وسلم، كان معروفًا بالتضحية والإيثار، ولقد انحدرَ من ذرّيّته كثيرٌ من الأولياء إلى يوم القيامة يخدمون الإسلام وكثيرٌ من الأخيار، فله أجر خدمة هؤلاء العظام للإسلام، وهذه خِصّيصى له بزّ بها غيره حسب ما تقتضيه القاعدة المذكورة، ولا ينبغي تفسيرُها بشكل آخر؛ هذا والأمة راضيةٌ متّفقةٌ على إمامتهم وسبقهم وفضيلتِهم وفق ترتيبهم في الخلافة.

وبالرجوع إلى السؤال فلا أرى صحّة إطلاق القول بـ"أنّ الدين من أجل الدولة كانت هي الفلسفة السائدة بعد عصر الخلفاء الراشدين لدى الأمويين والسلاجقة والعثمانين". نعم، ربما كان في الحكام الأمويين أو غيرهم مَن فهموا فلسفة الدولة في هذا السياق، إلّا أنه ليس من الصحيح إطلاق الحكم والادّعاء بأنهم جميعًا كانوا هكذا؛ كما أنه من الخطإ قصر نهضة الدين على عصر الصحابة، فما أكثر المحاسن التي فعلها معاوية رضي الله عنه وغيره، بل حتى مَنْ عُرفوا بالظلم؛

وأخصّ عصر عمر بن عبد العزيز مفخرة الأمويّين، كان كالوردة المتفتحة بين الأشواك؛ أنجز في عامين ونصف أعمالًا تستغرق قرنًا من الزمان.

وهذا هارون الرشيد شخصية ذات قدر... والمهدي كان شخصيةً لها قدر رفيع أيضًا حتى كان يُنظر إليه أنه مهدي ذلك العصر؛ وفي السلاجقة كان "آلْبْ أَرْسَلَان" مجاهدًا لا يُشَقُّ له غبار؛ وكذلك كان "مَلِك شاهْ" رجل دولة عظيمًا؛ وأرى أن العثمانيين أيضًا ظهروا ومُكِّنَ لهم حتى السلطان الفاتح -جعل الله الجنة مثواه- ممّن مُكّن لهم بفضل قمم من البشر كأنها سلاسل الجبال؛ كانوا جميعًا عباقرة مرموقين، وما قيل عنهم في كتاب "الشجرة النعمانية" صحيحٌ حقًّا؛ فهُم مَن أدّوا الأمانة على أكمل وجه بعد سادتنا الصحابة الكرام ﵃. نعم، ثمّة ازدهار وانحطاط حدث بعد السلطان الفاتح؛ غير أن الحفر التي سقطوا فيها إذا قارنّاها مع ما نحن فيه اليوم فإنّها تُعدّ قبابًا تعلو رؤوسنا.

من أجل ذلك لا أرى من الصواب حصر مسألة "صلة الدولة بالدين وتسخيرها لخدمة الدين" بعهد الخلفاء الراشدين فحسب، فبعض الناس في عصرنا كالمودودي مثلًا لديهم دقّة مفرطة بعضَ الشيء في هذا الشأن، أي في مسألة فصل الخلافة عن الملك، وأظنّ أن مردّ ذلك إلى الإفراط في كلٍّ من التعصّب لآل البيت، والتحامل على الأمويّين؛ وإني أذكر أمثاله أيضًا بخير لأن سيدنا رسول الله ﷺ

يقول: "**اُذْكُرُوا مَحَاسِنَ مَوْتَاكُمْ**"(٣٧)؛ بيد أنه يجب على مَن يؤلّف في أي مجال، ويحظى كلامه بالقبول أن يدقّق أكثر؛ فإن العلوم الإسلامية بحرٌ محيطٌ، فلا ينبغي أن يتحدث كلّ من أراد وكأنّه متخصّص وفي كلِّ المجالات يُحيط؛ إنهم يفرطون في الأمر قليلًا... يسعون لرفعة شأن آل البيت وتعظيمهم، فيضرّونهم دون قصد أو تخطيط.

هذه نظرتي لهذه القضية وللفكرة التي تتوارى وراءها، ولا أؤمن بإطلاق القول "إنه ما من يوم إلا والذي بعده أسوأ منه"؛ ففي الشجرة النعمانية -كما ذكرنا سابقًا- إشارة إلى أن العثمانيين قادمون وسيعملون في الدولة كما كان الصحابة رضي الله عنهم يعملون؛ وقد ذُكِر هذا القول في العصر السلجوقي قبل أن يظهر العثمانيون على ساحة التاريخ أصلًا؛ وهذا يعني أن اليوم ليس أسوأ من سابقه مطلقًا؛ فالنهوض من الحُفر إلى القمم ممكن دائمًا، وقد تعقب مظاهرُ الرقي مظاهرَ الانحطاط؛ ويؤيد هذا أنّ القرآن الكريم أشار إلى أنّ الأحداث التاريخية في تكرار دائم، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿**وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**﴾ (سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: ١٤٠/٣).

ولو تناولنا القضية من وجهة نظر مختلفة لتبيّن أن الحوادث لا تسير على خطّ مستقيم؛ فكل شيء يدور بشكلٍ دائري؛ فإن كان اليوم عيدًا لبعض الناس، فلا ريب أن الغد سيكونُ عيدًا لآخرين، وهو ما تحدث عنه أبو سفيان يوم أحدٍ قائلًا: "اَلْحَرْبُ سِجَالٌ"(٣٨)، وهذا هو

(٣٧) سنن الترمذي، الجنائز، ٣٤؛ سنن أبي داود، الأدب، ٤٢.

(٣٨) صحيح البخاري، المغازي، ١٧؛ مسند الإمام أحمد، ٥٥٦/٣٠.

الحـال في القشـرة الأرضية؛ فالقمـم تغور فتغدو حفـرًا حين تنهار، وتغيضُ الجبال وتتكوّن البحار؛ وبدهيّ أنه سـتتكوّن قممٌ في أماكن أخرى في اللحظة نفسها، وهكذا الحوادث الاجتماعية دائمًا.

إنّ سـرعةَ الانهيار والانحطاط ازدادت تدريجيًّا منذُ القرن الثامن عشـر حتى القرن التاسـع عشـر، فلمـا كان القرن العشـرون سـوّينا بـالأرض؛ ونأمـل أن يكون القرنُ الحـادي والعشـرون العصرَ الذي ننهـض فيه، ونبلـغ الـذرى مجدّدًا، وقد تأتي أيام براقة سـاطعة على نحوٍ ما قبل أن ينصرم النصف الأول منه إن شـاء الله تعالى، ربما لم يشهد العصر العثماني شيئًا من روعتها وعظمتها! ونوجز ما قلناه وما يمكننا قوله بعبارةٍ أخرى فنقول:

منـذ قيام الدولة الإسـلامية حتـى يومنا هذا ونحـن نمرّ بمراحل ذهبيّـة رغـم الانقطاع الذي حـدث أحيانًا، وكان الديـن والخلافة أو الإمامة أساسًـا فيها، وكانت الدولة خادمةً للدين، واسـتمدت الدولة كلَّ قوتها من الدين في تلك الفترات، واستندت إلى توجيهه وإرشاده، وصار الدين مصدر النور للطرق التي ستمرّ بها الدولة؛ فحمى الدينُ الدولةَ من التردّي في الأخطاء، ومن الوقوع في كثير من المآزق.

نعم، ربما تحوّلت الإمامة والخلافة في فتراتٍ مختلفة من التاريخ إلى سلطنة، غير أن هؤلاء الممثلين الكاملين أي الذين جعلوا الإمامة بمستوى السلطنة لم يُسلِموا قلوبهم ولا عقولهم للسلطنة ألبتة سوى نـزرٍ يسـير منهم؛ وهو ما حـدث على طول الخـطّ الممتد من طارق ابن زياد حتى السـلطان القانوني: فلما دخل طارق بن زياد "طُليطلةَ"

ووطِئَت قدماه خزائن الملك، أسرّ في نفسه وقد مرَّغ جبينه بالتراب قائلًا: "كنتَ عبدًا من قبل، ثم قائدًا بالأمس، وفاتحًا اليوم؛ فلا تنسَ أنك غدًا سترقد تحت التراب"، وقال القانونيّ بكل صدق وإخلاص عندما عاد من "فيينا": "لقد شعرت بشيء من الغرور في نفسي، فابسطوا فراشي اليوم في الممرّ"؛ ولطالما كانوا جميعًا يترنّمون بتلك الروح.

إن هؤلاء القادرين على كبح جماح أنفسهم كانوا مهيضي الجناح تواضعًا حتى وهم في أزهى ساعات النصر، وهذا يُظهر أنه كانت منّا قمم شاهقة؛ وأن كل شيء كان يسير حقًّا وفقًا لروح الدين، وأنَّ الحياة بأكملها اصطبغت بهذا الشعور؛ غير أنَّه كان يظهر أحيانًا عند كلٍّ من الأمويين والعباسيين والقراخانيين والإلخانيين والخوارزميّين والسلاجقة والعثمانيين مَن يقدِّمون المُلك على رضا الله، عفا الله عنهم وعنا أجمعين.

ولكنَّ تعميم حالات نادرة وتشويه صورة تلك الدول الذهبيّة من خلال ذلك هو عينُ الظلم، ولا يجوز لنا أن نفعل شيئًا كهذا؛ لأن القرآن الكريم ينصحنا بأن نذكر بالخير من سبقونا.

ناهيك عن أن السلطنة التي كانت في تلك الفترات لم تكن ملكًا محضًا؛ وإنما كانت تهدف إلى فتح البلاد من أجل إعلاء كلمة الله تعالى، والتعالي والكبرياء في مواجهة الأعداء المتغطرسين المتكبّرين، وهذا الكبر صدقةٌ يستحسنها الدين.

أمـا ما يحدث فـي يومنا فهـو كمرحلة البرزخ من هـذه القضية؛ لذلك فالمسؤولية التي تقـع علينا اليوم هي تحديد القواسم المشتركة من أجل التمكّن من الحوار مـع الجميـع، والقدرة على التفاعل مـع العالم أجمـع.

obeikandl.com

آلِيَّتان في الإنسان: النفس والضمير

سؤال: للنفس والضمير دور مهمّ في ترقّي الإنسان وتدنّيه؛ فكيف نفهم ماهيّتهما؟

الجواب: إن للإنسان جانبين هما: الملك والملكوت؛ ويمكن تسميتهما بأسماء أخرى، وقد أطلق بعضهم عليهما الملائكي والشيطاني أو الجسدي والروحاني أو المادي والمعنوي أو النفسي والوجداني، وسعوا لشرح الحقيقة نفسها بعبارات مختلفة.

والأفضل تناول الجانب المعنوي والماديّ من الإنسان في صورة آليّتين مختلفتين، وتقييمهما في ضوء ذلك؛ ولنُطلق على المعنويّ اسم "آليّة الوجدان"، وعلى الآخر "آليةَ النفس".

فبينما يُشكِّلُ آليةَ الوجدانِ القلبُ والروح والسر والخفي والأخفى واللطائف الربانية المتعلقة بعالم الأمر والإرادة والإدراك والشعور والحسّ والمشاعر؛ تُشكّلُ آليةَ النفس الغرائزُ والنزوات والأهواء والحقد والبغض والغضب والعناد... هذه المشاعر التي وُهِبت للإنسان لغاياتٍ وحِكم معيّنة... وهاتان الآليتان تعملان غالبًا على النقيض، غير أنَّ آليّة النفس تغدو إيجابيّةً إنْ تغلّبت عليها آليّةُ الوجدان، ثم تتحوّل إلى آليّةٍ تعمل على رفعة الإنسان ورقيّه.

obeikandl.com

نعم، يمكن أن تصير آليةُ النفس نافعةً للإنسان حينما يجتاز مرتبة النفس الأمّارة -وفقًا لتصنيف الصوفية- إلى مرتبة النفس اللَّوّامة فالمُلهَمة فالمطمئنّة فالراضية فالمرضية فالصافية، ولأجل هذا فإنه من النقص والخلل تناول الإنسانِ من جانبه المعنويّ فحسب، واعتباره مجرّدَ آليّة للوجدان فحسب؛ إن الولاية الحقيقية هي ولاية الصحابة؛ وقد صبغ الصحابة آلية النفس بـ"صبغة الله"، ووضعوا خاتمًا من أختام الولاية حتى على المشاعر السلبيّة لدى الإنسان.

ولنتناول الشهوة مثلًا: إن هذا الشعور يغدو منبعًا محضًا للشرّ إن تمّ تفعيله من الناحية المتعلقة بنفسه فقط؛ لكن هذا الشعور أُضفيَت عليه في نهج الصحابة كيفيةٌ تجعله بعدًا من أبعاد الولاية؛ أي إن الشهوة حينما توضَع في الحلال يُثاب الإنسان حتى على علاقته مع أهله؛ وقد عجب الصحابة حين قال رسول الله ﷺ ذات يوم ذلك، فتساءلوا: "يَا رَسُولَ اللهِ، أَيَأتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟"، فأجابهم الرسول ﷺ إجابةً منطقيّةً، وفطريّةً بقدر منطقيّتها قائلًا: "**أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ**"(٣٩)؛ إذًا تركُ الحرام يُكسب الإنسان ثوابَ القيام بأمرٍ واجب؛ وهذا يعني أن الإنسان في استطاعته أن يفوز بالجنة بهذا الشعور الخاصّ بآلية النفس.

ولنا أن نعد جميع المشاعر الخاصة بآلية النفس وسيلةً للشعور بأحوال الجنة؛ أي كما يستطيع الإنسان بالأحاسيس والمشاعر

(٣٩) **صحيح مسلم**، الزكاة، ٥٣؛ **مسند الإمام أحمد**، ٣٧٦/٣٥، ٣٨٢.

الخاصة بآلية الوجدان أن يشاهد بعض الأبعاد الخاصة بالجنة ويعايشها، فبإمكانه كذلك أن يُحسّ ويدرك بعض الأحوال الخاصة بالجنة بواسطة بعض الأحاسيس الخاصة بآلية النفس المزكّاة، ويبدو أن هذا أحدُ أسرار وحكم إبهاج الجنة للروح والجسد معًا؛ وفي حديث القرآن عن خلق آدم عليه السلام من تراب وطين وصلصال وغير ذلك إشارة إلى بعض المواد التي تكشف ماهية الإنسان؛ وإلا فمن القصور حصر تفسير هذه المواد على أنها التراب والطين والصلصال التي نعرفها.

وهاك شعور الغضب لدى الإنسان، إنه شعور يُفسد الإنسان إن بقي على حاله، وربما يحوّله إلى فرعون جانٍ ملطّخ الفكر والمشاعر واليدين والعينين بالدماء، غير أن الإنسان إن استخدمه في غايةٍ نبيلةٍ، أي إن دخل مثلًا في نزاع من أجل الدفاع عن دينه وعِرضه وشرفه ووطنه بالشعور نفسه وقَتلَ مَن أمامَه فهو غازٍ، فإن قُتِل فهو شهيد؛ فغضبٌ على هذا النحو مقبول عند الله مثل "الحلم" أو أكثر... وإذا كانت الجوانب الترابية ترفعُ الإنسان إلى هذه الدرجات إن عولجت جيّدًا، فلكم أن تتخيّلوا ماذا يُمكن أن يحدث إن أحسنَّا استخدام آليّة الوجدان.

أجل، يمكن للإنسان بلوغ مستوى الملائكة في أيّ وقت شاء ولو بخصائصه الترابيّة، بل إنه قد يفوق الملائكةَ عندما تبدأ آلية الوجدان عملها؛ ذلك أنه لا شيءَ يدفع الملائكة إلى الشر، فإرادتهم تتجلى في اختيارهم عملًا من الأعمال المعروضة المرضيّة عند الله،

أمّا إرادة الإنسان فهي مكلفة بالاختيار بين الحسن والرّديء، ونظرًا لأن "الغُنْم بالغُرم" فإن اجتيازَ الإنسان تلك المعضلات التي تواجهه يُعدّ وسيلةً وطريقًا ليكون أفضل من الملائكة.

بالوجدان يجد الإنسان ذاتَه وربّه؛ ولأجل هذا فإن مئات الناس بدءًا من عظماء الإسلام كالإمام الرباني والإمام الغزالي ومولانا جلال الدين الرومي وبديع الزمان سعيد النورسي، وصولًا إلى كثير من المفكّرين الغربيّين تناولوا الوجدان إما بالكشف وإما بالحدس، وتوقّفوا كثيرًا عند تلك الخاصيّة؛ وإنني لأستخدم بصفة خاصة عبارة "الكشف والحدس" هنا؛ فالأولياء يعلمون خصائص الوجدان كشفًا، أما الفلاسفة فيعرفونها حدسًا، وقد اتّفق الفريقان على أن الوجدان لا يكذب.

ويُدرج الأستاذ بديعُ الزمان الوجدانَ في مؤلفاته الأولى بين البراهين الرئيسة والأساسية التي تدلّلُ على وجود الحق تعالى(٤٠)؛ غير أنه لا يرى الوجدان دليلًا موضوعيًّا واضحًا بالقدرِ الذي يفهمه الجميع؛ لذا تجده في كتابه "الكلمات" اقتصر من هذه البراهين على ثلاثة: الرسول ﷺ، والقرآن، وكتاب الكون(٤١).

أجل، لا يستطيع كل إنسان أن يفهم لغة الوجدان الخفية؛ ولأجل هذا لا يُعَدّ دليلًا موضوعيًّا، غير أنه أعظمُ دليلٍ وأقوى برهانٍ عند

(٤٠) انظر: بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **المثنوي العربي النوري**، نقطة من نور معرفة الله، ص ٤٢٣-٤٢٧.

(٤١) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **الكلمات**، الكلمة التاسعة عشرة، الرشحة الأولى، ص ٢٥٣-٢٥٤.

obeikandl.com

مـن يفهـم لغتَه؛ فلا قِبَـلَ لأية معلومات أو مكتسـبات على الإطلاق أن تُشعِر الإنسان بما يُشعِره به وجدانه.

ففي الوجدان نقطة اسـتناد ونقطة اسـتمداد: بهما يُدرِكُ الإنسـان عجـزه وفقـره، ويعتمد بهـذا الإدراك على الله، فيطلـب ما يطلب منه تعالـى؛ ومـا دام لـدى الإنسـان حسّ "طلـب المدد"؛ فهـذا يعني أنّ هناك من سـيَمُدُّه، ولو لـم يكن الأمر كذلك لكان منحُ الإنسـان هذا الحسَّ نوعًا من العبث، ولا عبث في الكون ألبتة، فلا شـك أن هناك مقابلًا لكلّ شـعور لدينا، إذًا إنّ ثمّة مقابلًا لكل من نقطتي الاسـتناد والاسـتمداد الكامنتين في الوجدان، بيد أن من لم يصـغ إلى وجدانه ولو مرّةً واحدةً في حياته، يتعذّر أن يشعر أو يحسّ بهذا؛ وإن الشعور قسـم تابـع لآلية الوجـدان، غير أنـه لا يُعنَى بقيمته الشـخصية قيمةً قائمةً برأسها؛ وحين ينضمّ إلى الإرادة والحسِّ والقلبِ يصبحُ وكأنه وجدانٌ مستقلٌ بذاته.

إن الوجـدان صـوت إلهي سـماوي يصـدع ويجهر وحـده دائمًا بالحقّ والحقيقة؛ مثله في ذلك مثلُ كل شـواهد وجود الحق التي لا تصمـت فـي أي وقت أبدًا؛ بيد أن هذا منـوط بالوجدان الذي يدخل في إطار تعريفنا نحن للوجدان، وإلا فإنه من المسـتحيل ألبتة انتظار النتائج نفسها من وجدان خضـع لآلية النفس، وانسحق تحت وطأتها.

أجـل، تصوّروا إنسـانًا تحوّل برمَّتِه إلى عاشـقٍ للشـهوة والحقد والغضب والمنصب والمقام؛ إنّه بذلك يخضـع في كلّ شؤونه لتأثير تلك المشـاعر السـلبية التـي أحاطت بروحـه، فالوجدان لـدى مثله

مكتـوفُ الأيـدي عاجزٌ عن التأثيـر، وأمثال هؤلاء ليسـت لديهم أية معلومـات عن آلية الوجدان؛ لذا فإن إدراكهم معنى الوجدان وغايتَه الأسمى من كل الغايات أمرٌ غير ممكن.

وثمة أمرٌ آخرٌ مهمٌ نشير إليه هنا:

يقـول "كانـط" فـي كتابه المسـمى "نقد العقل المحـض": إن الله يُعـرف بالعقل العملـي، لا بالعقل النظري، فإن التصرفاتِ الحسـنةَ، والأعمالَ الحسنةَ سرعان ما تتحوّل إلى طبيعة في الإنسان، وتبلـغ به نقطة لا تُبلـغ بالعلم المجرّد. أجل، إن المعرفة والمعلومات المجردة لا ترفـع الإنسـان إلى هذا المسـتوى ألبتة، فمن حُرم التطبيق والعمل يعجز قطعًا عن الإحسـاس بما يجب عليه الإحسـاس به في ضميره مهما قرأ من كتبٍ وأسفارٍ.

أمـا ما يجب على الإنسـان عملُـه فهو الأعمال التي استحسـنها الدين ووصفها بـ"الصالحات"؛ وإعمالُ آلية الوجدان واسـتثمارها ذو قرابة قريبة جدًّا من تطبيق مفهوم "الصالحات" في الحياة.

obeikandi.com

أسلوب النقد

سؤال: النقد يكاد يكون المعيار الوحيد اليوم في الحديث عن القضايا الإدارية والسياسية، فهل هذا المنهج صحيح؟

الجواب: شاع قول العرب "الهدمُ أَسْهَلُ" حتى غدا مثلًا. أجل، ما أسهل التخريب والنقد والهدم، وما أصعب "البناء"؛ لذلك كان على من يسعى للهدم أن يبحث أولًا عن طرق "البناء"، ويحددها ثم يبدأ "الهدم"؛ وإلا فإنه لن يمكن أبدًا ملءُ الفراغ الناتج عن الهدم.

أجل، هناك قضايا لا تتحمل التخريب ولا النقد ولا الهدم ما لم توضع لها بدائل؛ وأظن أن تحقيق التوازن في هذه المسألة هو من أهم وظائف الرسل خاصة رسولنا مفخرة الإنسانية ﷺ. أجل، لقد كان يكشف مثالب المجتمع القارّة فيه، ويصدع بأسلوب مقنع نبيل لا يخشى أحدًا، قائلًا: "هذا خطأ!"، غير أنه كان يقدِّم البدائل الحقيقية البنّاءة فورًا، فيحول دون الفوضى والفراغ، أي كان يوازن كل شيء ويتفحَّصُ إيجابياته وسلبياته، ولا يمنح الفراغ الفكريّ والحسيّ أيّة فرصة، وهذا المنهج يلقِّننا دروسًا كثيرة: منها أن محاولات الهدم العشوائية جناية ما لم تسبقها خطط ومشاريع لـ"بناءٍ" يقوم على أرضية سليمة، وإحاطة تامّة بالحراك.

ولما لم يُطَبَّق هذا المنهج في الحياة عاش الفرد والأسرة والدولة في فراغٍ خطير على قدر الأخطاء المرتكبة ومداها، وانساق الجميعُ إلى الفوضى؛ ففي الدولة العثمانية مثلًا، قد عُورض السلاطين أحيانًا، وأُطيحَ بهم، وطولب بمن هو أفضل، فإذا بالأوضاع السلبيّة تتفاقمُ، فاستحال العثور على من هو أفضل، وراح الجميع يتحسَّر على الأيام الخوالي وأصحابها.

ومن ذلك مثلًا أن طلعت باشا، وجمال باشا، وأنور باشا، ورضا توفيق، وتوفيق فكرت، و-بقدر ما- محمد عاكف، وكثيرين غيرهم أطلقوا على السلطان عبد الحميد -جعل الله الجنة مثواه- اسم "السلطان الأحمر"، واضطلعوا بدور فاعل في خلعه، وصفقوا وهللوا لذلك، لكن كلًّا منهم ندم على ما فعله وقال عنه لاحقًا كلمات تقديرٍ وإجلال، عندما احتلّ اليونانيون "إزمير" بكى رضا توفيق في ميضأة الجامع منتحبًا، ونظم شعره "استمدادًا من روحانية عبد الحميد". أجل، هكذا قالوا، ولكن "بعد خراب البصرة"؛ لقد انهارت الدولة العلية، وضاعت الموصل وكركوك والسليمانية ومصر والبلقان، وضاع الأمنُ في هذه المنطقة الذهبية، ثم أفاقوا من نومهم العميق، والعالم اليوم يدفع ثمن هذا، يدفعه غاليًا جدًّا؛ لأن الدولة العثمانية كانت عنصرَ توازنٍ بشرقها الأوسط، وقوقازها، وبلقانها؛ هيهات... لم ندرك ونَعِ هذه الخصوصية إلا بعد الانهيار.

كم هو مؤلمٌ أن تتكرّر تلك الأخطاءُ التاريخيّة في هذه الآونة أيضًا، وتُخرَّبُ الدول أو الحكومات دون إقامة الخطط والمشاريع

الصحيحة البديلة، وتستخدم المعارضة شِعارات لمجرد النقد فحسب مثل: "نمتنع عن التصويت لهذه القرارات" أو "ما هكذا تمارس السياسة الخارجية والسياسة الداخلية... إلخ"،وإذا قيل لهم: "قولوا واكتبوا ووجهوا إلى ما يجب أن يكون"، قالوا: "لا بُدّ من معلومات واسعة، وتجربة سابقة قويّة، ونحن نفتقر إلى هذا". نعم، لكلِّ دولةٍ وحكومة أخطاؤها، غير أنه ما ينبغي أن يجري حسابها ألبتة وفقًا لفلسفة "الهدم أوَّلًا ثم يبدأ التفكير في كيفية البناء"؛ فهذا يوهن الدولة ويمهد السبيل لأن تخسر سمعتها داخليًّا وخارجيًّا، بل ربما تخسر الدولة كلّ أرصدتها، فمثلًا لو أن بلدنا التي أكسبها موقعها الجغرافي وضعًا إستراتيجيًّا متميزًا كانت أقوى بقليل مما هي عليه اليوم في إطار التموّجات السياسية الجارية حولنا، لأمكنها أن تجذب كلّ آسيا الوسطى إليها وتأخذها إلى جانبها بجاذبية وقوة لتغدو هي "المركز"، بل ربما استطاعت جمع العالم الإسلامي كلّه حولها.

ألم يكن الأمر هكذا في ماضيها؟ ألم يظهر كل من: آلْبْ أَرْسلان والفاتح والقانوني بفضل الثقة التي نتجت عن حسن القبول القوي، وأصبحوا أملًا للأمة تدوي أصواتهم في أرجائها؟ ألم يستجب كثيرون لهذا الصوت المدوي؟..

أجل، لا علاقة لنا بمن يجرون وراء حسابات خاطئة؛ فإننا منذ وُجِدنا حتى اليوم ونحن نهتم بحال ومآل هذه الأمة، باكين أحيانًا، وضاحكين أخرى، ولا تفارق شفاهَنا ابتسامةُ الأمل أبدًا؛ لقد قدّمنا

ما قدمناه من العناية بحماية قلبنا حتى لا تعرض لها هزةٌ جديدة، ولطالما بحثنا لمواجهة المخاطر عما يجبُ علينا فعله واستقرأناه، وقلنا لكل مَنْ تَتَبّعنا قريةً قريةً، وقصبةً قصبةً، ولكل مرتكب لأيِّ ضربٍ من الشرِّ: ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ (سُورَةُ الإِسْرَاءِ: ٨٤/١٧)، ولم نستأ، ولم نغضب من هذه السلوكيات الصادرة عن القائمين على هيئات الدولة، ولم نسخط لا على دولتنا ولا على أمتنا وما ضقنا ذرعًا بذلك أبدًا.

أجل، إن الاتزان مهمّ جدًّا في هذا الشأن، وإنني على قناعة بأن هناك كثيرًا من الأخطاء تُرتكبُ اليوم في هذا المجال، علمًا أنّ هذا الضرب من السلوكيات -كما قدمنا آنفًا بالأمثلة- مضاعفاتُه وأضرارُه غير متوقّعة بل ربما لا تكفي طاقتنا لأن تعمر وتصلح ولو واحدًا منها.

إن هذا النمط من التفكير ربما يزعج أناسًا يَظهرون بمظهر الراديكاليين؛ إنّ هذا الموضوع حساسٌ إلى حدّ كبير، فلا أريد أن يُستخف بأيّ فكر إسلامي، ولا أرضى بأن يمتعض أيّ مسلم أبدًا، والواقع أننا أمام آراء متباينة جدًّا للمسلمين؛ فترى من يقول "أنا مسلم"، وفي يده قنبلة، ويتوشح سلاحًا، يسير به في الشوارع يُقتّلُ الناس، فمن العسير فهم هذا ومواءمته مع الفكر الإسلامي، وإرضاء الجميع غاية لا تُدرَك طبعًا؛ لذا أخاف أن أُطلق كلماتٍ وبياناتٍ قد يُساء استعمالها وربما تُفسر تفسيرًا خاطئًا، ورغم هذا فبيان الحق والحقيقة مسؤوليّتنا.

والحاصل أنه لا بد من تنفيذ كلّ شـيء في إطار قواعده، ولا بد مـن إظهـار العناية البالغـة عند العمل حتى لا ندمّر كل شـيء ونحن نسـعى للبناء؛ ينبغي ألا نسـقط في فراغات منطقيّة، وطريق ذلك أن نعتبر بالماضي، وبالأحداث التاريخية، وألا نغامر بالأمة والدولة.

obeikandl.com

الإسلام والحركات الانفعالية

سؤال: هناك حركات انفعالية تنتسب إلى الإسلام تواجِهُ الأنظمة الحالية في العالم؟ فما رأيكم في هذا الموضوع؟

الجـواب: لا أعرف أن الحركات الانفعالية قد أفادت شـيئًا على مـرّ التاريـخ أو أنها بلغت الغايةَ من أفكار أصحابها؛ لن أذكر أسـماء هنا، فالحركات الانفعالية -إسـلامية كانت أم غير إسـلامية- ظهرت فـي مناطق مختلفة من العالم وسـرعان ما تعثـرت، وقد كانت أولى الحـركات الديمقراطية لدينـا نحن أيضًا حركاتٍ انفعاليةً، ولم تُعمَّر؛ إذ انهارت وغارت، والآن:

١- واجبُ الوقت في رأينا هو إيضاحُ الفكر الإسلاميّ واستقراءُ طرق الإقناع، وعلى سبيل المثال أرى أنّ أرضنا كانت ستغدو روضةً بهيّةً منذ زمنٍ مديد لو كان في العهد الذي نشأ في بلادنا أولُ حركات انفعالية جهودٌ صادقة مخلصة طويلة المدى تهدف إلى تربية الإنسان وتنشـئته بـدلًا من تلك الحـركات الانفعالية والانشـغالِ بكراهية من يعادون قيَمَنا المقدسةَ، ومواجهتِهم بكل مشاعر البغض والحقد.

تأملـوا، لقد مضت نحو أربعة عقود منذ الخمسـينات حتى يومنا هـذا... إن مـن كانـوا في العاشـرة من العمـر يومئذٍ لو أنهم درسـوا فـي الجامعـة، لبلغـوا الذرى الآن أو أوشـكوا، ومـن كان في مطلع العِقد الثاني سيصبح في غُرة العقد السادس اليوم، ومعناه أنهم كانوا سيعيشـون أنضج فترات عمرهم في مستوى رؤساء الوزراء ورؤساء الجمهورية، غير أنهم لطالما كانت أفعالهم أفعال السـاخطين... لقد انماثَـت بمرور الزمـن هذه الحركات التي يمكننا أن نسـميها "حركة السـاخطين"، وتـوارت مخلفةً الحسـرة والهجران، غيـر أننا نذكرهم جميعًا بخير.

٢- إنجاز ما يمكن إنجازه من أجل حاضر هذه الأمة ومستقبلها بـلا تخريـبٍ أو إلحاق الضـرر بوحدتها، أي ينبغي عند الشـروع في "البناء" النأيُ عن التورّط بـ"دمارٍ" يسـتحيلُ إعماره على مدى أجيال، وإلا عوقبنـا بخـلاف مـا كنّـا نبغـي ومُنينا بلعنـات الأجيـال القادمة وبغضها، وحُرِمنا كثيرًا من الأمور الأخروية.

٣- ربما يرغب المؤمنون أن يعيشـوا حياةً رحبةً رحابة عوالمهم الإيمانية الذاتية، غير أن شعورًا كهذا لا ينبغي أن يكون مقصدًا أصليًّا أو منتهى الغايات؛ إذ لم ينبِس رسول الله ﷺ ببنت شفة في هذا الأمر وهو يبلِّـغ رسالته للناس في العهد المكّيّ، بل نزلت الآياتُ الكريمة فـي قضايـا الإيمـانِ والحقائـقِ الإيمانيةِ، وجـلُّ الأحاديثِ الشـريفةِ وردتْ فيهـا أيضًا، والمجاهدون الذين بلغوا رسـالة الإسـلام للعالم في العقد التالي لم يتشوّفوا إلى أيّ شيء، بل واصلوا كفاحهم تحت

وطـأة ظروف شـديدة ولم تسـاورهم إذ ذاك أية خواطـر تُعكِّر صفاء نياتهم.

وعلـى عشـاقهم اليـوم العازمين والناويـن الاقتداء بهـم في كل شـؤونهم ألا يُعكّـروا صفـاء أفكارهـم بخواطـر فضوليّـة لا تعنيهم كهـذه، وعليهم أن يضاعفوا هممهم في خدمة القرآن والإيمان، وأن يسـتخدموا كل طاقاتهم لنيل رضا الله، وأن ينسـجوا نسيجهم حوله؛ والحقيقـة أنّ الخواطـر الأخـرى تعني -معـاذ الله- مسـاومة الخالق سـبحانه وتعالى، أي كلُّ خاطرة مثل: "إذا عملت كذا فسأعيش حياةً هكـذا وهكـذا، أو لا بـد أن تكون..." أمورٌ غيـر لائقة، وهي خلافُ وعـي العبوديـة لله مطلقًـا، ومن يلج دوائر فاسـدة كهـذه يتعذّر عليه الخلاص منها.

أظن أنَّ مَنْ يسـتهدفون المنافـع الماديَّة والدنيويّة فيما يضطلعون بـه من خدمـات، ويجعلونهـا غايتهم ومقصدهم، يُحرمـون تأييد الله ﷻ، حتـى وإن ضحوا في سـبيل هذا بأرواحهـم وأموالهم وثرواتهم فهـم لا محالـة خاسـرون وسيخسـرون؛ لأن الغاية المثلـى لا بد أن تكون الله فحسـب، ولا بدّ أن يكون الله سـبحانه ورضاه هما الهدف فحسـب، وحيـن يتحقـق هذا يبلغهـم أهدافهـم، ولا يُقضَـى عليهم بالخذلان والخسران.

٤- طلّاب متاع الدنيا كثير، وذوو القوة والنفوذ كثيرًا ما يلجؤون في الأمور الدنيوية التي يكثر طالبوها للقوة والضغط ليحصلوا عليها أو لئـلا يفقدوهـا إن كانـت فـي أيديهـم؛ وتصرفهم هـذا أمر طبعي؛

obeikandi.com

إذ لا آخـرة لأهـل الدنيـا، بـل لهم الدنيا فحسـب، فيشـقُّ عليهم أن يفقـدوا هـم أو أطفالُهـم أو أحفادُهـم دنياهم وما فيها مـن متاع، أي حينمـا تتنافـس طائفتـان من النـاس على هدف واحد مـن هذا الأمر فـذاتُ الشـوكة منهمـا تتغلّـب علـى الأخـرى، إذًا فعلينا أن ننشـغل بالتبليغ والإرشاد وأن نجتنب الحركات الانفعالية، وأن يكون هدفنا الوحيد رضا الله ﷻ...

obeikandl.com

عالمية الإسلام

سؤال: كيف ندرك خصوصية عالمية الإسلام؟

الجواب: أجل، إن الإسلام دينٌ عالمي، فهو يقدّم رسالاته للناس جميعًا بوضوح تامّ لا فرق بين قوم وقبيلة وشعب ولا ماضٍ أو حاضر أو مستقبل، ولا بين مكان وآخر، فآسيا وأوروبا وأمريكا وأرض العرب سواء... إنه يخاطب البشرية جمعاء، تأملوا في القرآن كلامَ الرسل جميعًا منذ آدم عليه السلام حتى قُبيل سيدنا رسول الله ﷺ؛ تجدوهم جميعًا عليهم السلام يخاطبون أقوامهم قائلين: "يا قومِ، يا قومِ"، أمَّا سيد الزمان والمكان ﷺ فيقول: "يا أيها الناس"، وما أكثر الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي تعزز هذا المعنى وتعضده، منها قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ (سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ: ١٠٧/٢١)، وقوله ﷺ: "**كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً** (وفي رواية: **وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ**)"[٤٢]، وهذا غيض من فيض.

---

(٤٢) صحيح البخاري، التيمم، ١، الصلاة ٥٦؛ صحيح مسلم، المساجد، ٣، ٥.

obeikandi.com

وبينما كان الإسلام يقرِّرُ عالميته لم يزعم أنه "نظام عالمي"، بل ربما أثبت أنه نظامٌ عالميّ بما حققه فعلًا من نشاطات معنوية ومادية أكثر من أن يعرِضَ لزعم كهذا، أي إنّ الإسلام قدّم مقوِّمات ورسائل ونشاطات متنوِّعة من أجل الفرد والعائلة والمجتمع، وهي رسائل تتّفق وتتواءم مع طبيعة البشر، فصارت دليلًا على عالميّته.

وبينما كان الإسلام يهدف إلى هذه الغاية بدأ فتناول الإنسان كُلًّا بجوانبه الإيجابية والسلبية كلّها مثل: أحاسيسه ورغباته وشهواته وحقده وكرهه وغضبه ومحبته... ورسائلُه لم تتعارض على الإطلاق قطّ مع قيم الفطرة المعروفة، فبوسع الإنسان أن يجد في الإسلام كلَّ شيء يشتهيه في دائرة المشروع، وحسب من يرغب ببلوغ الكمال أن يرجع إلى الإسلام ولا حاجة له إلى أي شيء من الرهبانية والبراهمانية والبوذية، وإن أشكل عليه أمرٌ في نظام عائلته وتربية أسرته وصلته بأقربائه فحسبه في ذلك الضوابط الإسلامية، وإن كان في مأزق اقتصاديّ عسِر فله علاجٌ ناجِع في القرآنِ الكريم والسنةِ النبوية المطهرة، وفي تفسيرِهما وبيانهما المتميز في اجتهادات السلف الصالح، وهي كذلك دواء لكلِّ داء...

أجل، إن الإسلام دواء لكل داء، إنه دواء لكل شيء بدءًا من المسائل المتعلقة بالحقائق اللاهوتية وتوحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد العبودية، وصولًا إلى علاقاتنا الأسرية وعلاقتنا الاجتماعية إنه دواء ناجع، ليس وراءه حاجةٌ لأي شيء آخر.

إن الإسـلام -رغم أنه ظهر في جزيرة العرب- سـرعان ما انتشر فـي كلٍّ من بخارى وسِـندآباد والصين وبـرج هرقل والهند وأفريقيا، وامتد حتى مشارف بيزنطة، واستُحسِن وكُتب له القبول، إنه لا يمكن بيـان هـذا وتفسـيره إلا بعالميّـة رسـائله. تأملوا، لقد دخل الإسـلامُ بصـوت مرشـديه ونفحاتهـم لا بإكـراه سـيوفهم أماكنَ كانـت منبتًا لمئات النظريات العقائدية؛ فكما اطمأن بالإسـلام الأتراكُ المفعمون بالحركة والنشـاط، كذلـك بعض الأمم المهيّأة للمـوت قبل الموت دخلت الإسلام فأحست بالوجود الحقيقي.

فـإذا كان ذانك الطابعان المختلفان عـن بعضهما اختلافًا جذريًّا قد اتَّحدا في القاسـمِ المشـتركِ الإسـلامِ؛ فلا بدّ من البحث عن هذا الاتحاد في القواعد التي تقوم عليها عالمية الإسلام.

والعالم الغربي الذي اكتشـف هذه الميزة يسـعى منذ عصور كما يفعـل الآن بـكل ما أوتي من قـوة ليمنـع هذا التقدم عنـادًا ليس إلا، والحقيقة أن أوروبا عندما كانت غارقة في ظلمات القرون الوسـطى كان الإسـلام فـي عِـزِّ نهضته الحديثة في آسـيا، ولو أن الكنيسـة لم تتعصب ولم تلجأ في سـبيل مواجهة الإسـلام إلى الفلسـفة اليونانية القديمة، ولم تنظر إليه بأحكام مُسـبقة -كما أشـار أحد المفكرين-؛ لما عاش العالم ما يعيشـه اليوم من ظلمات حالكة، ولكنها توجهت إلى مفاهيم عصر الوثنية ولجأت إليها، ولا تزال تواصل تزمّتها ذلك إلى الآن.

أجل، لا بد من البحث عن عالمية الإسلام في الأسس والمبادئ التي جاء بها للإنسانية: ماذا وعد المرأة والرجل والطفل؟ وما النظام الذي أقامه لمواجهة الاضطرابات الاقتصادية والاجتماعية؟ وكيف حلَّ المشكلات البشرية، وقاومَ الرذائل التي كانت مستشريةً في المجتمع؟ وبم أوصى لتحقيق التوازن الدولي؟ وهكذا... أجل، إنكم حين تضطلعون بدراسة كل هذه الأمور سترون أن للإسلام هويةً شموليّةً تفوق كل الأنظمة، وترون أنه الدواء الناجع لكل داء، وعندئذٍ تقولون: "إن الإسلام دين عالميّ حقًّا".

وثمة أمرٌ لا ينبغي تجاوزه دون بيان، فهذا موضعه: إنّ من الخطإ تقديم عالمية الإسلام من خلال القرآن فقط، وأرى وجوب البحث عنها أيضًا في السنة الصحيحة، واجتهادات الخلفاء الراشدين، وآراء السلف الصالح ودراستها في ضوء ذلك.

نعم، إننا آمنّا دائمًا بكفاءة الإسلام وكفايته. أجل، إنه رغم كل الأيديولوجيات التي تواجهنا لم نرْتَبْ في كفاءة القرآن والسنة قطّ، بل على العكس من ذلك حملنا في قلوبنا إيمانًا بأن كل هذه الأيديولوجيات لا طاقة لها بمواجهة الإسلام، حتى إننا نؤمن إيمانًا تامًّا بأن من يرزحون تحت أغلال الشيوعية سيستيقظون يومًا ما على هذه الحقيقة... وحسبنا أن تتاح لنا الفرصة لتبليغ الإسلام وتمثيله.

إننا لا نخافُ من أيّ شيء ألبتة، لأننا نعلم أنَّ الإسلام دين عالميّ برسائلِهِ التي حملها، وفعالياته في كل ساحة تمسّ حياتنا

وتعنينا شخصيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا وصناعيًّا وأُسرِيًّا وعسكريًّا ودوليًّا... إلخ؛ ونؤكّد هذا، ونؤمن به، أَلَيْسَ في بقاء الإسلام بأسسه المتجدِّدة دائمًا رغم جفاء أعدائه وغدر أصدقائه منذ أربعة عشر قرنًا دليلٌ على عالميته؟

obeikandl.com

عناية الرسول ﷺ بأصحابه رضي الله عنهم

سؤال: ليتكم تحدثوننا عن حبّ رسولنا ﷺ لأصحابه الكرام، وأسباب هذا الحبّ؟

الجواب: لقد عُني الرسل السابقون أيضًا بمَن نصروهم، وبأممهم التي ساندتهم في خدمتهم ودعوتهم، فأحبوهم وقرّبوهم، وكيف لا وهم الذين لم يُسْلِموهم وإن في أحلك الظروف؟ غير أن ثمة فرقًا بين رسولنا ﷺ وغيره من الرسل عليهم السلام: عندما يدنو الأجل من نبي قبل خاتم الأنبياء يأتي آخر ويتولّى الأمر من بعده غالبًا، أما بعد مفخرة الإنسانية ﷺ فقد تحمَّل هذه الرسالة أولياءُ الأمة، وعلى رأسهم الصحابة الكرام رضي الله عنهم.

وهكذا كان ﷺ يحبّ أمته لتحمّلها هذه المهمة الجليلة... وكلّما اقتضى الأمر صرّح بأصول هذه المحبة، ويذكّرهم بقوله ﷺ: **"تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ"**(٤٣)، وأحيانًا يوجّه القلوب إلى القرآن الكريم وأهل بيته، ويوصي

(٤٣) موطأ الإمام مالك، ١٣٢٣/٥.

obeikandi.com

بملازمتهما والتمسك بهما قائلًا: "**إِنِّي تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا: كِتَابَ اللهِ، وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي**"(٤٤)، ولهذا فإن العناية بآل البيت أنصارِ الكتاب والسنة بالجبلّة في ذلك العصر وتاليه كانت من باب التمسك بالدين، والحقيقة أن وراثة آل البيت لرسولنا ﷺ هي بأحدِ معانيها أسمى من كل أنواع الإرث.

وفي أمته أفراد هم ممثِّلو روح النبوة، لقد صاحبوه وآمنوا به من أعماق قلوبهم، وأسلموا له، ولم يتخلوا عنه قط ولو لحظةً واحدة، فهم جميعًا رأوا نور النبوة، وترعرعوا في لألاء أجوائها وغِلافه، فتميزوا عنَّا كثيرًا من هذا الوجه، ولا ريب أنْ سَيَتَميّزُ من اجتمع به وشاهد أحواله كلها، وشهِدَ الوحي وهو يهطل عليه من السماء، لذا طبعيٌّ أن يُعنَى بهم رسولنا ﷺ أيّما عناية، ويفاخر بهم، حتى إنه قال ﷺ: "**لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ، ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلاَ نَصِيفَهُ**"(٤٥)، إنه وهو يفعل هذا يرشد في المقام الأول كل من بعده وكل من سيخدم الدين ويناضل من أجله حتى يوم القيامة ليضعوا أصحابه رضي الله عنهم في مقام الصدارة.

أجل، لقد كان ﷺ إنسان الوفاء، كان حتى لحاقه بربّه يتنفس وفاءً لمن بذلوا أرواحهم وضحّوا بها في سبيل دعوته التي حملها، لقد تكاملوا معه وانصهروا في بوتقته حتى إنه لما حان اللحاق بالرفيق الأعلى -وهذا ما كان يريده- نَشَج يبكي على فراقهم، وما كان

---

(٤٤) صحيح مسلم، فضائل الصحابة، ٣٦؛ سنن الترمذي، المناقب، ٣١. (واللفظ للترمذي).

(٤٥) صحيح البخاري، فضائل الصحابة، ٥؛ صحيح مسلم، فضائل الصحابة، ٢٢١-٢٢٢.

منه إلا أن قال لهم: "**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ نَبَّأَنِي اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ أَنَّهُ لَمْ يُعَمَّرْ نَبِيٌّ إِلَّا نِصْفَ عُمْرِ الَّذِي يَلِيهِ مِنْ قَبْلِهِ، وَإِنِّي لَأَظُنُّ أَنِّي يُوشِكُ أَنْ أُدْعَى فَأُجِيبَ، وَإِنِّي مَسْؤولٌ، وَإِنَّكُمْ مَسْؤولونَ، فَمَاذَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟**" قَالُوا: "نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَجَاهَدْتَ وَنَصَحْتَ، فَجَزَاكَ اللهُ خَيْرًا"(٤٦)، فكل وفاءٍ عرفناه منه ﷺ تعلمناه.

إنه لم يكن وفيًّا للبشر فحسب، بل كان مفعمًا بالوفاء حتى للحجر والترب، يشتاق إلى مكة ولا ينقطع عن "قباء"، لأنه أوّل منزل فتح له صدره بعد الهجرة والعناء، وهو الذي قيل له فيه: "ههنا المنزل يا رسول الله"، فكان رسول الله ﷺ يزور قباء كلّ سبت حتى لكأنه يقول له: "لقد ضيّفتني وأكرمتني"، وكان يزور أُحدًا أيضًا، ذلك المكان الذي قال فيه: "**هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**"(٤٧)، أي هو المكان المبارك الذي نال نصيبه من حبّ رسولنا الحبيب، وكان يزور البقيع مقبرة المدينة، كلا -أستغفر الله- إنه ليس بمقبرة، بل هو نُزُل الصحابة الكرام انتظارًا للآخرة... وما أكثر الأمثلة عن وفاء إنسان الوفاء ﷺ...

لذلك نجد كل من يطرق هذا الموضوع، صديقًا كان أم عدوًّا، يقول: لم تأتِ ولن تأتيَ جماعة تتعلق بقائدها كما كان أصحاب محمد ﷺ، ولم يأت ولن يأتي قائد يتعلّق بتابعيه كما كان محمد ﷺ. أجل، وهل يستغرب أن يُصطفى الأصحاب لنبي مصطفى؟

(٤٦) الطبراني: المعجم الكبير، ١٨٠/٣.

(٤٧) صحيح البخاري، أحاديث الأنبياء، ١١؛ صحيح مسلم، الحج، ٤٦٢.

نعم، إن الصحابة الكرام أناس أُسبِغ عليهم الإحسان واللطف بعد مرحلة معينة بما قدموا من عبادات وكفاح وعزمٍ وجهد، أما رسولنا مفخرة الإنسانية صلوات ربي وسلامه عليه فقد خطا أولى خطواته إلى الدنيا نبيًّا، فقد كانت حياته قبل البعثة حتى طفولته تعزز ما سيكون لاحقًا؛ من ذلك مثلًا أنه كان مثالَ العفة في العصر الجاهلي يوم أن لم تكن العفة والطهر والعفاف والأمانة شيئًا ذا بال؛ فإذا ما قيل "العفيف" في أي مجلس تبادر إلى الأذهان رسول الله ﷺ، إنّه لم يدع أحدًا يلمزه في كرامته أو عفته قطّ، ولم يُتِح لأحدٍ الفرصة ليفعل ذلك، وكان يفيض حياءً من رأسه إلى أخمص قدميه، لقد رعى الأمانة حق الرعاية حتى إنه عُرِف في الجاهلية بلقب "الأمين"، لم يمر الكذب بسمائه قطّ... وما خدع أحدًا ألبتة.

وقد غدت صفاته تلك قواعد رسالته وأسسها، فهذه الرسالة ستُبنى على تلك الأسس، انظروا! لقد اتهمه مشركو مكة ببعض الصفات لإنكار رسالته السامية تلك، وقالوا عنه ما لا يُقال لمثله ولا يصدّقه أحد: شاعر وكاهن ومجنون، لكنهم لم يجرؤوا أن يتّهموه بالكذب أو الفُحش، وعجزوا أن يصِموه بخيانة الأمانة وخلف الوعد، وبدهيٌّ أنهم أنفسهم لم يصدقوا تلك الأكاذيب التي رموه بها. أجل، لقد جاء طاهرًا مطهَّرًا، وعاش كذلك، وتربّع في قلوبنا كذلك.

وكما أشرنا آنفا كان ﷺ إنسانًا مصطفًى أدرَكْنا وجودنا بوجوده، ومن اتبعه اصطفاهم الله له وجعلهم أمته وأنصاره وصحابته، وهذا يعني أنكم لو بحثتم عن أبي بكرٍ آخر من بعده فلن تعثروا عليه أبدًا،

ولـن تجـدوا عمر عينَه، ولا عثمان نفسَـه، ولا عليًّا ذاته ﭫ جميعًا؛ غير أنّ ثمة كثيرًا على قدمِ أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ، سيأتون من بعدهم، ويستمرون إلى القِيامة؛ ليحملوا المهمة التي حملوها نفسها.

وإليكـم مثـالًا صغيرًا فحسـب: إنّ اسـم خالد بـن الوليد ﭬ لم يُطرَح لقيادة الجيش في غزوة مؤتة؛ فما زال حديث العهد بالإسلام، أسـلم قبل نحو شـهرين، وقد أمَّر رسـولنا ﷺ زيد بن حارثة، فجعفر بـن أبي طالـب، فعبد الله بن رواحـة ﭫ بهذا الترتيب، فاستُشـهدوا واحـدًا تلـو آخـر، فنعاهم رسـول الله ﷺ قبـل أن يأتيـه خبرهم فقال وعيناه تذرفان: "**أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ، فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ ابْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ، حَتَّى أَخَذَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ**"(٤٨).

وذكـر المؤرخون أن جيش المسـلمين نحـو ثلاثة آلاف جندي، وجيـش البيزنطييـن نحو مائة ألف مقاتل، فـكان على كلّ مجاهدٍ أن يقاتـلَ ثلاثين ونيفًـا من البيزنطيين، ودارت الحرب دون هوادة سـتة أيـام، وفي اليوم السـادس جاء القدر باستشـهاد القـادة الثلاثة تباعًا، وفـي حمأة المعركة التقطَ صحابي ضعيفٌ نحيلٌ اللواءَ، ونظر حوله فـرأى خالـدًا ﭬ فقـال له: "خذ اللـواءَ يا أبا سـليمان!"، فقال خالد: "لا آخـذه، أنـت أحقّ به"، فقال هو بدوره: "خذه أيّها الرجل! والله ما أخذتُه إلا لك!"(٤٩)، فأخذه خالد فكانت تلك الليلةُ ليلةَ خالد.

(٤٨) صحيح البخاري، المغازي، ٤٥.

(٤٩) الواقدي: **المغازي**، ٧٦٣/٢.

لقد دوَّخَ العدو وشوّش ذهنه بإستراتيجيّات جديدة؛ فجعل الميسرة ميمنة والميمنةَ ميسرة والقلب مؤخِّرة، وطبّق إستراتيجيّات أخرى في مجال آخر؛ إذ أمر بقرع الطبول فظنّ العدوّ أن مددًا قدم من المدينة، فدبَّ الخوف والرهبة والهرج والمرج في قلوبهم. نعم، لقد فعل كل هذا ليوحي لهم الليل بأنّ مددًا قادمٌ من بعيد يثير الغبار والضوضاء والجلبة بمقدمه، ولما طلع الفجر فوجئَ العدوّ بجيشٍ كثير الرايات والألوية يطير صقوره هنا وهناك في حركة وانفعال.

وهكذا ذهبت بهم الظنون أن مددًا جاء من المدينة، ووقعوا في حَيْصَ بَيْصَ، وتحيّروا أيّما تحيّر لا سيما حينما ارتفعت الشمس، ورأوا أنهم أمام أناس غير أولئك الذين كانوا يحاربونهم منذ بضعة أيام، وشُنّت الهجمات تباعًا على قلب جيش العدو وكانت قواه المعنوية قد انهارت انهيارًا شديدًا، وتلك هي الأمارات الأولى لتحوّل الهزيمة إلى نصر.

ناشدتكم الله ! كيف بلغ خالد ﵁ هذا المستوى في شهرين اثنين، وحقق كلّ هذه الأمور؟ وعاد خالد ﵁ بالجيش إلى المدينة سليمًا، أما البيزنطيون فجبنوا عن أن يتعقّبوا المسلمين، وما تجرؤُوا على ذلك.

والآن أجيبوني: ألم يكن أصحاب النبي المصطفى مصطفينَ أيضًا؟ أجل، لقد عشقوا هذا الأمر بصدقٍ نابع من أعماقهم وأفئدتهم؛ ولذلك استحقوا شفاعته ومحبته ﷺ، وسيقوم إن شاء الله جيلُنا الوارث للدعوة المحمدية، ليبذل الجهد المفروض من أجل

حمل تلك الأمانة المقدسة ووضعها في مكانها اللائق دون أن يشعر بيأس أو قنوط أو سأم أو ملل أو ضعف ولو عرضت له ألوان من المعاناة والمشاق، فيستحقّ بذلك محبّة سيد الأنبياء ﷺ كالصحابة الكرام تمامًا.

اللهم اهدنا للسير على هذا الطريق المبارك، ولا تحرمنا من الإخلاص فيه ولو لحظةً واحدة! اللهم آمين.

obeikandl.com

الاستعداد لحضور مجالس العلماء

سؤال: بماذا ينبغي أن نستعد قلبيًّا وروحيًّا لتتحقق لنا الفائدة القصوى من مجالس العلماء؟

الجواب: يمكن تناول هذه المسألة من عدة زوايا:

١- لا بد أولًا من الثقة التامّة بهم حتى تتسنّى الاستفادة من مجالسهم؛ وإلا استحال تحصيل أيّ شيء مطلقًا من حضور مجالسهم بكبر وغرور وخيلاء وهوس العظمة كمن ينظر إلى كل إنسان وكلّ شيء من علٍ، وتتعذّر أيضًا استفادةُ من اضطُرَّ لحضور مجلس علم وهو يحدّث نفسه قائلًا: "هذا مضيعة للوقت، ولكن ماذا عساي أن أفعل، لم أستطع أن أكسرَ خاطرَ فلان..."

أجل، إن القرآن الكريم يقول وهو يقصّ هذه الحقيقة الكلية: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ١٤٦/٧). أجل، إن المتكبّرين والمغرورين لن يستفيدوا من آيات وجود الله ووحدانيّته ولو انهمرت على الأرض زخًّا زخًّا، وقد أكّد رسول

الله ﷺ هذه الحقيقة فقال: "**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**"(٥٠)؛ وقال فيما يرويه عن ربه في حديث قدسيّ: قَالَ اللهُ ﷻ: "**الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا، قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ**"(٥١). أجل، إن المبتلى بالكِبر والغرور، أي من يُنازع ربّه في "رداء" الكبرياء و"إزار" العظمة يستحيل أن يُدرِكَ الإيمان أو يستفيد من حقائقه؛ لأنه بمقتضى الأصل ترفض حقيقة العظمة والكبرياء لله تعالى هذه الظلية المتغطرسة لدى الإنسان، وهذا المتغطرس لا يحصل على نصيبه الكامل من الإيمان، ولا يستطيع دخول الجنة دار المؤمنين.

٢- تجاوز الحدّ أيضًا يحول دون الاستفادة التامة من هذه المجالس؛ وكما أن تجاوز الحد يكون بظلم الناس قد يقع أيضًا في وضع الإنسان نفسه موضع الأولياء المقربين، بل قد يبلغ به الأمر أبعد من ذلك، فينزل بأولئك الأولياء إلى مستواه هو لا لشيء سوى أنه لم يرقَ إلى مراتبهم، ولأنه يجهل الأذواق والأحوال، أي إن إنكاره هذه الأمور بقوله: "هم رجال ونحن رجال، والكشف والكرامة والذوق وغيرها أشياء يمكن تفسيرها وتأويلها على نحوٍ ما" يحرمه من الفائدة،والحقيقة أن فهمًا كهذا في يومنا هذا مرضٌ كالإيدز في خطورته وفتكه؛ فالإنسان الذي يحُطُّ من مرتبة الإمام الأعظم والشيخ الجيلاني والإمام الرباني وغيرهم من العلماء

(٥٠) صحيح مسلم، الإيمان، ١٤٧؛ سنن الترمذي، البر، ٦١.
(٥١) سنن أبي داود، اللباس، ٢٧.

والأولياء، وينزل بهم إلى مستواه يستحيل أن يستفيد من فيوضاتهم ويُمنهم وبركاتهم.

ثم إنّ هذا الفكر يحول دون السير والوصول إلى الدرجات العلى؛ لأن إنسانًا كهذا ليس أمامه مُثُلٌ سامية يحتذي حذوها حتى يسعى ليدركها ويصل إلى درجتها، وبعبارة أوضح: إن من يحدثون أنفسهم قائلين: "من الإمام الأعظم؟ لو كان بيننا لغلبته بالحجة" أو "من الإمام الرباني، ومن الشيخ الجيلاني؟"... إن إنسانًا كهذا يتحوّل ذهنُه إلى "أنا" ويدور كلُّ شيء حوله، ذلك أنه ليست لديه غاية سامية، فهذه النوعية من البشر التي تنسج كل شيءٍ على مِنوَال أنانيتها يستحيل أن تجتاز ذاتها، أو أن ترى أيّ شيء سوى نفسها، إذًا بوسعكم أن تُسَمّوا من ينسحق تحت وطأة نفسه من البشر "ضحية النفس"، ومن يخضع لتأثير ضربات أنانيته القاتلة "ضحية الأنانية".

دَعُوكم من استفادة أمثال هؤلاء من مجلس هذا أو ذاك؛ بل إنه لا يمكن توقُّع استفادتهم من مجلس حتى سلطان السلاطين ومفخرة الإنسانية محمد المصطفى ﷺ، وإن أنوار الحق تعالى القدسية لا تنكشف لهم، حتى وإن انكشفت على سبيل المحال لتعذر عليهم الاستفادة منها، بل إن الطريق المؤدية إلى الفيض الأنور لو لامست حتى قلوبَهم لما استطاعوا أن يخطوا ولو خطوةً واحدة فيها.

أجل، إن العبارة التركية الشائعة "آثار الفيوضات على قدر الاستعدادات" تُكتب بماء الذهب، فاستفادة أي إنسان من آثار الفيض رهنٌ باستعداده وطاقته.

obeikandi.com

٣- يحـول الانحـراف دون الاسـتفادة مـن مثل تلـك المجالس أيضًـا، والانحـراف يعني النظرة السـطحية وقصور النظر واسـتمرار التأثر بوجهات النظر السابقة أو العقليات المتهالكة، فكما قال بديع الزمـان فـي كتابه المثنـوي العربي النـوري: "إن مَن يَرى قشـرَ بيضةٍ انقشـعت عن طاووسٍ تكمَّل وطار في السـماء، ثم يتحرّى ما يسمع مـن كمـالاتِ ذلـك الطير الطائر فـي فضـاء العالَم في تلك القشـرة اليابسة، لا بد أن يغالط نفسه أو يكذّب"(٥٢).

أجل، هذا انحراف وخطأ فادح جدًّا، ولعلّ هذا هو السبب الأهم لعجز معاصري مفخرة الإنسـانية ﷺ أمثال أبي جهل وأبي لهب ومن جـاؤوا بعدهـم عن الاسـتفادة منـه ﷺ؛ فقد جاء برسـالة يغمر نورها الإنسـانية جمعاء، وأرشد الإنسانية التي تتخبّط في مستنقـع غائرٍ إلى حقيقتهـا وماهيتهـا الحقَّـة، وأنار وجهَ الكـون بالنور الـذي علّمنا به علّـة الخلـق الحقيقية، وبيّن لنا أن المسـتقبل ليس عبارة عن ظلمات كما ادعى الملحدون، وأَشْـرَبَ قلوبنا مئاتِ وآلافَ الحقائق؛ لكنهم وا أسـفاه حُجبت عنهم تلك الحقائق الكلية، وما اسـتطاعوا رؤيتها، ﴿وَقَالُـوا لَـوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُـلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝ أَهُمْ يَقْسِـمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـاتٍ لِيَتَّخِـذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُـخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَـيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (سُـورَةُ الزُّخْرُفِ: ٤٣/٣١-٣٢).

(٥٢) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **المثنوي العربي النوري**، حَباب من عُمان القرآن الكريم، ص ١٨٢-١٨٣.

obeikandl.com

والأستاذ بديع الزمان ممن حلّ بهم ما حلّ من تلك النظرات المنحرفة في عصرنا هذا، وما ضرّه ذلك شيئًا، بل نزل الضرر بمن ينظرون إليه تلك النظرة ويقيمونه في ضوئها؛ إنه ذلك الرجل الذي لما ملك أوقيّتين من العسل أهدى واحدةً لإخوانه تكفيهم قرابةَ شهر، وإذا بها تنفدُ خلال ثلاثة أيام، فاقتسم معهم أوقيّته الثانية أيضًا وقال: "لقد نفد نصيبهم من العسل في يومين أو ثلاثة لما أظهروه من كرم وإيثار فيما بينهم، في حين أنني بتّ أتقوّت ما كنتُ أملكه من العسل وأقتصد، فتناولته طوال شهرَي شعبان ورمضان، فضلًا عن أنه أصبح -ولله الحمد- سببًا لثواب عظيم، إذ أعطيتُ كلّ واحد من أولئك الإخوة ملعقةً واحدةً منه وقت الإفطار"(٥٣)، إنه الإنسان الذي يقول: "إن هذه السترة (الجاكيت) قد اشتريتها مستعملةً قبل سبع سنوات، وكَفَتْ أربعُ ليرات ونصف الليرة مصروفَ خمس سنوات مضت للملابس والحذاء والجوارب، فلقد كفتني البركة والاقتصاد والرحمة الإلهية"(٥٤)، إنه الإنسان الذي كان يسدّ رمقه بماء حساء الشَّعْرِيّة الذي يحتوي على بضع حبات منها، بينما يعطي حبات الشعرية للنملات الجائعة، وهو الذي يقول: "البركة في الاقتصاد، أما الإسراف فهو الطريق لانقطاع البركة"(٥٥)؛ وجعل هذا دستور حياته.

لقد كان على هذه الهيئة والصورة، لكن إحدى الصحف قصيرة النظر كتبت ذات يوم تقول فيه: "لما اقتحمت الشرطة بيتَ بديع

(٥٣) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **اللمعات**، اللمعة التاسعة عشرة، النكتة الخامسة، ص ١٩٧-١٩٨.

(٥٤) انظر: بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **المكتوبات**، المكتوب السادس عشر، ص ٨٦.

(٥٥) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **اللمعات**، اللمعة التاسعة عشرة، النكتة الأولى، ص ١٩١.

الزمـان عُثر على كثيرٍ من قشـر البيض في كيـس"، ولو أن هذا الخبر صحيح فالأمر طبيعي للغاية حسب أسلوب تفكير بديـع الزمان؛ فهو فعل ذلك شكرًا للدجاجة التي تبيض، والبيضة التي تفقِصُ فتأتي منها الدجاجة، ناشدتكم الله! أليس هذا طبيعيًّا من إنسان كان يقول: "كان للدجاجة التي تمنحني البيض يوميًّا فرخة عمرها ما بين خمسـة إلى سـتة أشـهر، بدأت تبيض عندما انقطعت أمّها عن البيض، لم تتركني يومًـا من أيام الشـتاء دون بيـض، إن هذه الحيوانـات مباركة..."(٥٦)، وهكذا كان ينظر حتى إلى الحيوانات.

فـي حياتـي كلها لـم أرَ كثيريـن يقـدّرون حتى البشـرَ الذين هم أشـرف المخلوقات مثل تقديره، انظروا إليه؛ إنه يعدّ دجاجَه مباركًا، فهو إنسـان في غايـة الدقة والرِّقة حتى إنه يقـول: "لو همّوا ينتزعون ريشـةً مـن دجاجتي، لقلتُ لهـم: عاقبوني بالحبس شـهرًا، ولكن لا تمسوا ريش دجاجتي!".

وربما كان هذا الإنسان المزين بتلك الأوصاف يحفظ قشر ذلك البيض في كيسٍ صغير كي يدفنه في مكان ما، ولكن انظروا إلى تلك النظرة القاصرة والفكر المعوج الذي يفسِّر الحدَثَ قائلًا: "إنه يتظاهر بأنه زاهد في الدنيا، غير أن العثور على أوقية من العسـل، وكثير من قشـر البيض في بيتـه يعني أنه يخدعنا..."؛ وهكـذا حجَبَهم مثل هذا الانحراف والتمسّك بصغائر الأمور من أن يستفيدوا من بديـع الزمان ومؤلفاته.

(٥٦) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **المكتوبات**، المكتوب السادس عشر، ص ٨٦-٨٧.

أجل، أولئك الذين انحرفوا فكريًّا وحسّيًّا ليس لهم أن يستفيدوا من مفخرة الإنسانية ﷺ ولا من الإمام الغزالي والشيخ الجيلاني ومولانا خالد البغدادي وبديع الزمان وأمثالهم، وإذا كان الأمر كذلك فعلى الإنسان أن يتخلّص من المشاعر المنحرفة والأحكام المسبقة والكبر والعجب بالذات، ومن كل ضروب التعدي والتجاوز حتى تتاحَ له الاستفادة من هؤلاء العظام، ويَجِد ما يستمع إليه صدًى في قلبه وعقله.

تأملوا عصر السعادة: لقد كان أبو جهل إنسانًا عاقلًا مثل خالد بن الوليد رضي الله عنه على الأقل، فكلاهما من بني مخزوم، وهما أبناء عمومة، غير أن أحدهما انساق وراء كِبره وغروره وانحرافه، فتردّى أسفلَ السافلين وبقيَ على الجانب الآخر من الباب، أما الثاني فقد ارتقى إلى "أوج كمال الإنسانية" بتواضعه ومحوِه وفنائه، وأخذ مكانه إثر الخلفاء الراشدين، وتسامى إلى أعلى علّيّين.

إذًا إن الاستفادة التامة من مجالس العِظام تتحقق بالإيمان أولًا، ثم بتجنّب كل ضروب التجاوز، وبالتجافي عن كل أنواع الانحراف.

obeikandi.com

أولمبياد العلوم

سؤال: ما رأيكم بمشاركة بعض المدارس من مرحلة التعليم المتوسط وفوزِها في المسابقات الأولمبية للمشاريع والعلومِ التي تنظم محليًّا ودوليًّا في السنوات الأخيرة؟

الجواب: من المهمّ جدًّا أن تتقدّم مدارس تمثّل الأفكار والآراء المنبثقة من قلب هذه الأمة المختمر بخميرتها للمشاركة في مسابقات الأولمبياد العلمية أو مسابقات المشاريع التي تنظم محليًّا ودوليًّا؛ إذ إنّ على مَنْ سلكوا الطريق منفتحين على المستقبل عازمين على احتضانه بكل ما فيه ألا يغفلوا هذه الحقيقة ولو لحظةً واحدة، لا سيما أن هذه المسألة لم تُدرج حتى اليوم في سياسة الدولة، فصار الاهتمام بهذا الأمر والعناية به مطلقًا واجبًا مهمًّا يقع على عاتق من يحبّ وطنه وأمته، ويمضي بها نحو المستقبل أفرادًا وجماعات، ولو أنّ رجائي يُسمع لرجوت المسؤولين قائلًا: "هلا تجعلون هذا الأمر من سياسة الدولة"، لست أدري هل يوحي إليكم مثل هذا الرأي بشيء يدلّ على أهمية المسألة؟

obeikandl.com

ويمكـن تأصيل هذه المسـألة شـرعًا: لقد لقي هـذا الضربُ من الفعاليـات العلميـة التشـجيع دائمًا، سـواء فـي عصر السـعادة كما فـي بعـض الوقائـع الفرديـة، أم في عصور غـدا فيها الفقـه مدارس وتطـور إلى مذاهـب، وهذا طبعًـا وفقًا لظروف كل فتـرة، وقد تابع الجميـع باهتمام وفي مقدمتهم السـلاطين والخلفاء تلكَ التطورات التي حدثت في شتى فروع العلم، ومُنحت المكافآت للمتفوق منها، وفـي الواقـع أليسـت تلك هي محصلات هذا المفهـوم الذي جعلنا أصحاب الكلمة عالميًّا على مدى قرون طويلة؟

وإن هناك شـبابًّا قادرًا على حماية ذاته وتحصين شـخصيته دون السـقوط فـي عقدة الدونية، يشـاطر أمته الفكر نفسـه والـروح عينها بل يشـعر معها المشـاعر والأحاسيس ذاتها ويعيشـها، وإن مشاركته فـي الأولمبيادات العلمية ونجاحه فيها محليًّا ودوليًّا ممثِّلًا لبلادنا له أهميـة كبيرة جدًّا عند العالم أجمـع لا سـيما أمتنـا؛ ذلك أن عصورًا مرت تسود فيها دعاية تزعم أنه "لا يخرج من رحم العالم الإسلامي عالِـم"، وهو ما كان يصيبنا بالشـلل عادةً، بل أثـرت فينا هذه الدعاية حتـى النخاع، حتـى إنني كدتُ أصدّقها رغم أننـي مفعمٌ بالأمل داعٍ إليه، لطالما تحدثتُ عنه سـنوات طويلة. أجل، لقد قوّضَتْ وهزمت هـذه النجاحـات التـي تحققـت بلطـف الله الدعايةَ المذكـورة، تلك الدعاية التي استقرّت محلّيًّا ودوليًّا ولدى الصديق والعدوّ.

والحقيقة أن الغرب الذي يسحقنا ماديًّا بقوّته وقدرته منذ عصور يسحقنا نفسيًّا أيضًا بهذا النوع من الدعايات، فتُسيطر علينا جميعًا في

هـذا المقـام عقدة الدونيّة، تسـيطر علينا لأنه لم تكن تلـوحُ في أُفقنا ولـو أمارة فجر كاذب يحـول دون هذا، غير أنه ليس الأمر كما كان، إني أظن أننا سـنتمكن -بعناية الله تعالى- من تحقيق نجاحاتٍ أعظم في مشاريـع أكبر وأكبر في السنوات المقبلة، وذلك بفضل الاطمئنان الذي نعيشه إثر تخلصنا من هذا الانسحاق.

وثمة فائدةٌ محلّيّةٌ لهذه النجاحات: منذ سنوات طويلة كان بعضهم يُطلـق على تلك المدارس اسـم "الكتاتيب" -أعظِمْ بشـأن الكتاتيب وأنعِـمْ-، إلا أنّ هذه المدارس أسـهمت في تقديـم كثير من الأفكار النافعة لبلادنا وأمّتنا، منها: سـبرُ أغوار الكون -انطلاقًا من حقيقة أن "القـرآن يقرأ الكونَ والكونُ يقرأ القرآنَ"-، والوقوفُ على الحوادث الطبيعية التي تجري في العالم، واسـتقراء الأشـياء ودراسـتها بعمق، وبلوغُ الأفق الذي أشـار إليه القرآن على لسان النبي وتقديمُه لخدمة البشـرية؛ ثـم إنّ تحقُّق هذا الهدف، بـل بلوغ قمّته أي تحقيقَ النجاح فـي المسـابقات العالميـة قـد غيّر مـا كان يُقال عن تلـك المدارس، وجعلها موضـع اهتمام الناس من القاعدة إلى القِمَّة؛ فالحمد والثناء كلّه لله الذي منَّ علينا بتلك النعم.

هـذا وقـد طَمْأَنَتْ تلـك النجاحات من يدعمـون بإخلاصٍ تلك المـدارس اطمئنانًا بالغًا، فلقد اطمأنّوا لِمـا فعلوا وهم يتحدّثون مـع النـاس، وصـاروا يفخـرون بالانتسـاب إليهـا وبينما هم فـي دعمهم الصـادق مستمرّون حتـى اليوم بأضعـاف مضاعفة صـاروا يتّخذون

من هذه النجاحات وسـيلةً للحصـول على دعم الآخرين للمدارس، وبدؤوا يستخدمون هذه الوسيلة في كل المحافل.

وعندما تتحقّق هذه الأمور جميعًا فلنعلم أن تلك النجاحات التي تحقّقت، والمستوى الذي بلغناه ليس هو الهدف أو نقطة النهاية، إننا نعدّ تثبيطَ الهِمَم إثمًا؛ ولهذا فما تُنجزونه بطريقةٍ بدائيةٍ اليوم هو أرضية وبنية أساسية لمشاريع ستُنجَز بحِرفِيّة في المستقبل إن شاء الله، ستؤسَّس في بلادنا -بإذن الله تعالى- قريبًا بدائلُ وكالة "نَاسَا (*NASA*)" الأمريكية التي يغبطها العالم أجمع، والأيام التي ستنسب فيها براءات الاختراع للعلماء المسلمين قريبة آتية لا محالة.

أمر آخر لا بدّ من تذكره دائمًا، وهو أن ضبطَ مؤشّر القلب ضبطًا جيّدًا في كل مرحلة من ألفها إلى يائها، ومن البداية حتى النهاية وإخلاصَ النية شرطٌ بل فرضٌ، قلنا من الألف إلى الياء، أي بدءًا من الطلاب الحاصلين على ترتيب في هذه المسابقات حتى المدرسين الذين ينشِّئونهم، وأولئك الذين لا يضنّون بالدعم الماديّ والمعنويّ، وجميع القلوب المشجّعة من الرجال والنساء الذين يفرحون بهذه النجاحات وليس لهم أيّ دور... أجل، إن على هؤلاء جميعًا أن يضبطوا مؤشرات قلوبهم جيدًا، وأن يشكروا الله "شكرًا مطلقًا" دائمًا؛ فلا بدّ أن يشكر كلُّ إنسانٍ ربّه كما يفعل طبعًا بعد كل نجاح يحققه؛ يشكره وَجِلًا مستهديًا بالبيان الإلهي السماوي: ﴿**وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**﴾ (سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ: ٧/١٤) وأن يسجد شكرًا لله، ويتوجّه إلى الله تعالى متضرّعًا متحرّقًا بنشوة الشعور

بحقيقـة التوحيد في ذاته كلّها؛ لأننا نعلم ونؤمن إيمانًا قاطعًا بأن كلّ شيءٍ نحظى به إنما هو منه تعالى.

ولنختم هذا الموضوع بتحديد هدف: ألا ليت بعض الدراسـات تبحث كِلا مرضَي السرطان والإيدز! أجل، فالعثور على علاج لهذين المرضين الفتّاكين الخبيثين يمثل خدمةً عظميةً للبشرية جمعاء، حتى إنـه يمكن القول بأنه إذا ما اتحدت مائة مدرسـة بطلابها ومدرسـيها وبطاقاتها المادية، وصارت دواءً لداء السـرطان، فأحيت نفسًا واحدةً فقـط، فلعـل الله يُدخِل كل هؤلاء المؤمنين الجنة، ناشـدتكم الله: لو أنكـم كنتـم ذلك المريـض، وفُتح لكم بـاب الجنة فـي الآخرة، ألا تقولـون: "يا ربي لا أريد الدخـول حتى يدخل هؤلاء الذين أنقذوني من مرضي"؟

شـاهدت فـي برنامج علـى التلفاز قبـل فترة سـيدةً أصابتها إبرة ملوّثـة بفيـروس الإيـدز، إنني لا أملك مشـاعري كلمـا لاح لي هذا المشـهد رغم مرور شـهرين أو ثلاثة عليه، وأجدني لا أتمالك نفسي ولا دموعي، فقد كانت السيدة تبكي؛ فهي سيدة عفيفة، وهذا المرض ينتقـل بالعـدوى عـن طريق الزنا كما شـاع وذاع، وربمـا كانت تلك المرأة تبكي وتموت ألـمًا خشية أن يُظَنّ بها هذا.

أجل، على المتطوعين من أهل العلم والمعرفة أن يبنوا دراساتهم علـى هـذا الفكـر والمعتقـد عمـلًا بقولـه ﷺ: "**خَيْـرُ النَّـاسِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ**"(٥٧).

---

(٥٧) الطبراني: **المعجم الأوسط**، ٥٨/٦.

وضعُنا المؤسف وسُبل الخلاص منه

سؤال: ماذا عن سبل الخلاص من الوضع البائس الذي نعيشه منذ قرنين أو ثلاثة؟

الجواب: لقد عرضت لأمّتنا مصائب كبرى منذ نحو ثلاثة قرون على فترات تترى كل أربعين أو خمسين سنة. أجل، منذ مطلع القرن السابع عشر الميلادي حتى اليوم والمصائب تنهال علينا، وكأن الله ﷻ يقول لنا على لسان الحوادث: "تنبّهوا، واستفيقوا، وعودوا إلى هويتكم الأُمّ!"؛ يقول هذا ليؤدِّبَنا ونحن لا نستوعبُ الدرس اللازم جيّدًا ولا نعتبر؛ لذلك ما زلنا نرتكب أخطاء تنجم عنها مثل تلك المصائب والبلايا، وكأننا ندعو الله بأن يرسل علينا مصائب أخرى.

أجل، لقد قلنا: إن المصائب تتوالى، من ذلك أن البيوت هُدِمَت في الحرب الروسية العثمانية (حرب ٩٣)، وخربت الدور والأنزال ونُهبت البيوت والمنازل وشَنَقَ الجنود الروس الجنودَ الأتراك، وعلقوا كل واحد على شجرة، فانكسرت الأمّة وانقصمَ ظهرها... ثم اندلعت حرب البلقان... ثم الحرب العالمية الأولى، واضطر جنودُنا

إلـى القتال في كل الجبهات... اضطروا لذلك، فذهب معظمهم إلى جبهات مختلفة دون عودة، وصارت كل هذه الأحداث قضايا تُطرَق في الشعر والمراثي والأناشيد. والأبيات التالية غيض من فيض:

هذا هو اليمنُ طريقه سهلٌ مُعشِبُ
ذاهبُهُ لا يرجعُ يا تُرى ما السببُ؟

وقد ذكرنا أنّ هذه الحوادث المؤلمة هي في واقع الأمر مصائب منّ الله بها علينا حتى نعود إلى ذاتِنا، وفيها بعدٌ من الإحسان للقادرين على الانبعاث من غفلتهم، أمَّا إذا ما فتئنا ندور في حلقات تلك الدائرة الفاسدة ولم نعتبر بهذه المصائب كما ينبغي فلا شكّ أنها ستستمرّ، بل ستحلّ بنا أضعافًا مضاعفة، ولن ترتفع عنّا؛ وهذا يعني أن هذا المستنقع قُدّر لنا فترةً أخرى حتى نكون بين مصيبتين: نفاق المنافقين منّا وضرر الأعداءِ المعتدين من غيرنا، لكننا إذا ما أفقنا وتوحَّدْنا مع روحنا وجوهرنا وعدنا إلى ذاتيتنا، فإن الله القادر على كل شيءٍ سيهدينا سبلَ السعادة، لنتوجَّه إليها ونسير فيها.

هل نحنُ وحدَنا دون سوانا عرضةً لهذا الضرب من المصائب؟ لا. أبدًا، انظروا إلى سائر بلاد العالم الإسلامي سترون المشهد نفسه، لذلك يمكن القول: إنه قَدَرٌ جامع للعالم الإسلامي إنّه لا مكانة للدول الإسلامية بين الدول في هذا العصر، ولا وزنَ لها في التوازنات الدوليّة. أجل، لقد تشرذَم العالم الإسلامي في هذا العصر وصار لُقيماتٍ سائغة، بل جُعِل هكذا، فكثير من هذه الدول اليوم صارت مسرحًا لأنواع شتى من الظلم لا يتخيّلها عقل، علمًا أننا

لم نكن هكذا بالأمس القريب... لم نكن هكذا، لمّا همّ الفرنسيون بعرْض مسرحيّة "فولتير" المسيئة لسيدنا رسول الله ﷺ، أنذرهم برسالةٍ ذاك الذي يسميه الغرب "السلطانُ الأحمر" عبد الحميد خان الثاني -جعل الله الجنة مثواه-، فرُفِعت فورًا من على خشبة المسرح وكانت قد بيعت تذاكرها؛ ثمّ همّ الإنجليز بعرضها فأنذرهم أيضًا، فاضطروا لإلغاء العرض، جرت كلّ هذه الأمور طبعًا في فترة كان الغرب فيها يسمي الدولة العثمانية "الرجل المريض"، وهذا أمر له مغزًى كبير.

والآن يا تُرى ما الحلّ وما السبيل للتخلص من كل هذا؟ إن أردنا أن تكون لنا الكلمة من جديد في السياسة العالمية وفي إدارتها، ونرتقي إلى مستوى أمةٍ كلمتها نافذة، فلدينا أمر أو اثنان دلت عليهما إحدى الآيات الكريمة في حديثها عن هذا الموضوع، يقول الله جل جلاله لسيدنا محمد ﷺ: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ (سُورَةُ الأَنْفَالِ: ٨/٣٣)؛ ففي هذه الآية أمران يسترعيان الانتباه، ويمنعان العذاب:

الأول: وجود سيدنا رسول الله ﷺ ذاتًا وروحًا؛ وقد وفّى الله تعالى بوعده هذا في عصر الصحابة الكرام ورسول الله ﷺ فيهم جسدًا وذاتًا، أي إنه لم تحل بأمته صلوات ربي وسلامه عليه في عصر السعادة تلك المصائب والابتلاءات السماوية والأرضية التي حلّت بقوم نوح ولوط وصالح وغيرهم من الرسل والأنبياء عليهم السلام.

والآن ليس بيننا سيدنا رسول الله ﷺ بجسده، فجسده غدا في عالم البرزخ، وكلّ مخلوق فانٍ، غير أننا إن أحييناه دائمًا في قلوبنا

وأفئدتنا أمكنَنَا سدّ تلك الفجوة؛ لذلك يمكننا أن نستفيد من الحكم المذكور في الآية برفع العذاب لوجوده المعنوي بيننا ﷺ.

الثاني: الاستغفار وملازمته... أجل، إنّ سادتنا الذين كانوا لنا المرشد والدليل بأقوالهم وأفعالهم وتصرفاتهم وسلوكهم منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان حتى اليوم وفي مقدمتهم سيد الأنبياء محمد ﷺ لَزِمُوا الاستغفار وربما لم تكن لهم ذنوب؛ فقد كان رسول الله ﷺ مثلًا يستغفر في اليوم سبعين مرة أو مائة مرة على اختلاف الروايات[٥٨]، وكان الصحابة الكرام الذين اتَّبَعوه يتوجهون إلى الله فورًا يستغفرونه مما قارفوه أو ظنوا أنهم قارفوه، ويتحرّون سبل غفران الذنوب، فكان مَن بعدَهم يهتدي بهديهم.

تبين إذًا أنّ الاستغفار الذي جعله الله تعالى سببًا لرفع العذاب كان في حياة أسلافنا بكل ما فيه من حيويّة، وكان يُتحَصّنُ به.

والآن أرى أننا -نحن أبناء العالم إسلامي- ابتعدنا تدريجيًّا عن الحياة الإسلامية منذ مطلع القرن السابع عشر حتى اليوم، بعُدنا وخضنا في الذنوب، ولطالما غدت الحياة الدنيوية همّنا، وجفونا القرآن والرسول وأوامرهما في حياتنا، وفوق هذا عجزنا أن ندرك أن كل ما فعلناه ذنب وإثم، وعجزنا عن الاستغفار؛ لهذا أرسل اللهُ العدْلُ علينا وابلًا من أصناف المصائب والابتلاءات.

(٥٨) صحيح البخاري، الدعوات، ٣؛ صحيح مسلم، الذكر، ٤١.

obeikandl.com

والآن وفي ضوء هذا يتبيّن أن سبيل الخلاص من هذه المصائب هـو: أن يسـود الاسـتغفار حياتنـا كلهـا، وأن ننقش حبّ رسـول الله ﷺ فـي قلوبنـا، وأن نتبينَ أخطاءنا سـريعًا، ونبحث عن حلٍّ ومخرج للسير والخلاص. أجل، هكذا ستنهض -إن شاء الله- هذه الأمة ماديًّا ومعنويًّا، وتعود كرّةً أخرى إلى عصور المجد السابقة.

openkandil.com

توحيد الأديان(!)

سؤال: انطلاقًا من القواسم المشتركة بين الأديان انتشر في الغرب: "أنَّ مصدرَ الأديـانِ كلّها واحدٌ، فلا بد أن نوحِّدها في دينٍ واحد"؛ فكيف ينبغي أن يكون موقفنا من تلك الأفكار؟

الجواب: بادئ ذي بدء أريد أن أبين أن هذا الأمر ليس مشكلتنا نحن، بل مشكلة من يرون الأديان متعارضة؛ إذ إننا لا نرى اختلافًا بين اليهودية والنصرانية وبين الإسلام من حيثُ المصدر، بل العكس هو الصّواب، فنحن نطلق عليهم اسم "أهل الكتاب" كما جاء في الكتاب والسنة، ونسعى إلى الانضباط بهذا المنهج؛ فيجوز الزواج بالنصرانية أما الملحدة فلا، ويجوز أكل ما يذبحه اليهودي أيضًا... وعلى هذا فإنّ سيدَنا عمر ﵁ سنَّ بالمجوس سُنَّةَ أهل الكتاب؛ لأن مِنْ أمَّهات عقائدهم ما هو قريبٌ من العقيدة الإسلامية، حتى إنَّ ثمة علماء أفاضل في يومنا هذا مثل "محمد حميد الله" يرون هذا الرأي في الديانة البراهمانية، وألحقَ بعضُهم الفئةَ البوذيّة بهذا الحكم أيضًا.

إن كان ما قاله الباحثون صحيحًا؛ كان "بوذا" مصلحًا مثل "مارتين لوثر (*Martin Luther*)"، وعليه فقد تكون البوذيّة مذهبًا في البراهمانية؛ ودلَّت دراساتهم أنَّ البوذيَّة استلهمت الأخلاق

من البراهمانية، وجعلت منها نظامًا وطوَّرَتْها، ولم تستلهم الجوانب النظريّة، وإذا كانت البوذية هكذا، فإن إطلاق لفظ "دين" على نظام بهذا المعنى محلّ نزاع؛ لأن الدين اصطلاحًا: "وضعٌ إلهيّ سائقٌ لذوي العقول باختيارهم المحمودِ إلى ما هو خيرٌ لهم بالذات"؛ أمَّا لغةً: فيمكن أن يُطلَق على هذا النظام اسم "الدين" بمعنى السبيل أو النظام أو المذهب وإن لم يطلق عليه اصطلاحًا، ومع هذا فالمسألة قابلةٌ للجدل، ومن يدري فلعلّ للنظام البوذيّ أصلًا كسائر الديانات الإلهية، وقد يكون دينًا مختلفًا عن البراهمانية.

وللحديث عن هذا الموضوع أسرد إليكم أمرًا آخر استطرادًا: لو لم يحدثنا القرآن الكريم عن المسيحية الخالصة وعن عيسى عليه السلام، فكم كنَّا سنعاني لنفهمَها بصورتها القائمة المحرَّفة، كنا سنعاني كثيرًا، وكان سيستحيل علينا بيان مفهوم "التثليث" أو "الأقانيم الثلاثة" التي تُختصَر بنحو "واحد في ثلاثة، وثلاثة في واحد"، ولو لم يقدِّم القرآن الكريم بيانًا جليًّا عن كلٍّ من سادتنا موسى وهارون وسليمان وداود عليهم السلام لتعذّرت معرفة الماهية الحقيقية لهؤلاء الرسل الكرام كما بيّنتها عقيدتنا؛ فالمصادر اليهوديّة تزعم مثلًا أنّ بعضهم فيلسوف، وبعضهم -معاذ الله- سِكّير، وبعضهم زانٍ يزني ببناته -حاشا وكلا-... إذًا لا يمكن أن يُطلق "دين" على مفهومٍ ينسِب إلى الرسل والأنبياء أشياءَ لن يفعلها حتى أدنأ الناس وأحقرهم في العالم؛ ومن ثمّ يمكن القول: من الممكن أن يكون للبوذية أصل حق إلا أنّها تعرّضت لعملية التحريفِ والتبديلِ كالمسيحية واليهودية.

هـل حدث هـذا للبوذية فحسـب؟.. لا، فهذا "سـقراط" مثلًا، لا تُعْرَف أفكاره من كتاباته هو؛ لأن طلابه هم من نقلوا كلَّ شـيء عنه، فكم تتلمذ "أفلاطون" على يد "سقراط"، وإلى أيِّ مدى فهِم أستاذَه، ونقـل إلينـا ما أخذه عنه؟ كل هذه مجاهيل، وَلَـدَى النظرِ إلى أفكارِهِ العامَّة نجدُ أنَّه كان مؤمنًا بالله.

أجل، لطالما فقدتِ الأفكار صفاءها ونقاءها الأول بمرور الزمن إبَّانَ تداولها بين الأفراد والأجيال، لو أن الأمر وقف عند هذا الحد، لكـن يحتمـل أن مدلولها أيضًا أصابه التغيير عدا فقدانها صفاءها في التعبير؛ إن هذا لهو أحد أنماط التحريف حتى وإن لم يكن بسوء نية.

ومـن هـذه الأمـور: أنه يتعـذر توقّع مـا آلَ إليه النهـجُ الروحيّ للمسيح عليه السلام بأكمله حينما اصطدم بوثنية "روما"، وبوسعكم مشـاهدة تلك الحقيقة المرة واضحةً حين تدخلون أية كنيسـة؛ ومن ذلك أنّ مفهوم المسيحية المحرَّفة للألوهية يقول: الإله خاملٌ، وعليه أن يدخـل فـي السـيدة مريم ثم يخـرج منها حتـى يصير إلهًـا فاعلًا ويتحول إلى المسـيح، ويغدو المسـيح هو الفاعـل الحقيقي أصلًا، فهـو يفعـل كل ما بوسـعه من أجل الإنسـانية، بل يضحي بنفسـه إذا لم يبقَ لديه ما يفعله، ويحين الوقت ليغدو أضحية(!).

ونعلـم أن اليهـود يقولـون أشـياء كتلـك فـي عزيـر عليه السلام، وهذا يعنـي أن مثـل تلـك الحقائق التي تشـبه الماس قد يـؤدّي الخطأ في تدوينهـا إلى خطإٍ فـي نقلها للأجيال القادمة، أمّا الإسـلام فنصوصُه مدوَّنـة علـى أكمل وجهٍ، والله تعالى قد تكفَّل بحفظ كتابه، ومع هذا

قد تتسلل مثل هذه النوعية من المعتقدات إلى بعض أتباعه، من ذلك نسبة الألوهية إلى سيدنا عليّ ﵁؛ وهذا كأنه العقيدة المسيحية التي ألمحنا إليها آنفًا، فسيدنا عليٌّ على هذا هو الألوهية الفاعلة -حاشا لله-، وما إرسالُ سيدنا محمد ﷺ ونزولُ القرآن الكريم وغير ذلك سوى تهيئة لسيدنا علي ﵁، وهو ﵁ صاحب مقام الجمع، فاجتمع في كيانه كل شيء ومثّله تمثيلًا، ثم تَقاسمَ هذه القوة من ذريته الأئمةُ الاثنا عشر؛ وستجتمع تدريجيًّا تامّةً في الإمام المنتظر باعتباره خاتم الأولياء، وهو الذي سيكشف عن الثلاثمائة أو الأربعمائة آية الناقصة من القرآن، وستظهر الحقيقة، وتتجلى تجليًا كاملًا مرةً أخرى (!).

ويستحيل الجمع بين شيءٍ من هذه الادعاءات الباطلة وأصول الإسلام، وما أودى بهؤلاء في هذه الهوَّة سوى الجهل والتعصّب الأعمى، ولولا اتفاق الأمة وإجماعها، وجهدها الممتد منذ أربعة عشر قرنًا لعانينا كثيرًا في فهم حقيقة سيدنا علي ﵁.

إذًا، وإن تردَّى كل واحد من المسيحية واليهودية والبوذيّة والمجوسية والبراهمانية في هوّة التحريف والتبديل إلا أن لها أصولًا مشتركة قد اتفقت عليها، منها: التوحيد والنبوة والحشر والعدل والعبودية ودفن الموتى والتستر... إلخ؛ فجُلُّ الأديان تتّفق على دفن الأموات عدا شواذَّ خرجوا على أعرافٍ امتدّت عصورًا طويلة، وأوصوا أن "أَحرقوا جسدي"، وأتباع معظم الأديان يرتضون التستر ويعملون به، بل إن كثيرًا من نساء اليهود في بلدان العالم كنّ يغطّين

رؤوسهن حتى وقت قريب؛ إذًا ثمة مجموعة من القيم المشتركة تتفق عليها الأديان، ولا ريب أن كثيرًا من أحكامها وقع فيه تحريف وتغيير وإن لم يحدث مثل هذا في الإسلام.

وعلى هذا يتعذّر تمييزُ ما جاء من عند الله عن غيره أصولًا وفروعًا، وقد أنزل الله ﷻ الأصول التي رضيها على كلّ نبيّ أرسله خلفًا لغيره من الأنبياء، ونسخ ما أراد نسخه من الفروع، وقد أرسل سيدنا محمدًا ﷺ خاتمًا للأنبياء، فحمل مهمة التصحيح والتجديد والتأسيس من خلال الكتاب والسنة.

أجل، إنه مصحِّح لأنه صحّح ما أصابه التحريف في الشرائع السابقة، وهو مجدِّدٌ غيّر كثيرًا من الأحكام لتناسب تغير الأحوال والأزمان، وهو مؤسّس أسّس شرعًا جلُّه جديد من الألف إلى الياء؛ إذًا لا حاجة ألبتة للسعي إلى توحيد الأديان من جديد؛ إن الإسلام -الدينَ الذي شرعه الله- هو اسمٌ لهذا الأمر الذي يفكّرون في تحقيقه، وفي هذه الآيات بيان لهذه الحقيقة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾ (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٥/٣)، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: ٣/٨٥)، ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ﴾ (سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: ٣/١٩).

وفي قاعدة "شرعُ مَن قبلنا شرعٌ لنا ما لم يرِد ناسخ"، مؤشرٌ آخر يشير إلى أنه لا حاجة لأمرٍ كهذا.

وهذا الضرب من الفكر والدراسات لا يُحظر إن كان باسم الثقافة لا باسم الدين؛ لأن الدين شيءٌ، والثقافة شيء آخر، ولا يمكن أن نعدّ الدين والثقافة شيئًا واحدًا مهما تضمّنت الثقافة أمورًا تصدر من الدين بل تتغذّى منه، فهذه الأفكار وإن أفادت في الدراسات العلمية والثقافية والحضارية إلا أنها دينيًّا تشبه في التباسها لغة الطقوس الهندية القديمة "السنسكريتية"، فهي عبثٌ محضٌ.

وآخر ما هنا أن هذه الأفكار طُرِقت في عصور خاليةٍ ودراسات سعت لتوحيد الأديان، وباءت جميعها بالفشل في أهدافها، ولعل "أكبر شاه" ذو نيّة حسنة، لكنه إنسان خضع لتأثير الهندوس وقال: "لنأخذ من كلّ دينٍ شيئًا، ونجمع بينها"، فنجم عن فعله هذا الزجّ بقامةٍ عُليا مثل الإمام الرباني في السجن.

وظهر أناسٌ في الغرب (لعل غارودي منهم) في الآونة الراهنة ليدعوا إلى الوجهة نفسها، وهؤلاء أفنَوا جُلَّ حياتهم حُمَاةً لأنظمة مضادّة للإسلام ثم اعتنقوا الإسلام في الظاهر؛ يفعلون ما يفعلون ظنًّا أنه الصواب إلا أنه خطأ محض، إنهم لم يطبقوا الإسلام بعدُ تطبيقًا يجعله جزءًا من أنفسهم أو من فطرتهم لا ينفصم عنها، ولم يطهّروا جوّانيتهم من نُفَايات الكفر، ويلقوها عنهم، فهم كمن يُشمِّر لِلُّجِّ عن ساقه ويَغْمُرُه الموج في الساحلِ.

أجل، إن الإنسان ميَّال للإفراط والتفريط والانحراف بطبعه، فهذا "ابن تيمية" وإن كان شخصية إسلامية عالمية إلا أنّ له آراءً شاذّةً وفيها إفراط، وإن من جعله متشدِّدًا في منهجه هم من كانوا يشعلون

الشموع في المقابر، ويغالون في زيارة الأضرحة يومئذ؛ ولهذا ينبغي أن يكون الناس حذرين يقظين دائمًا، وأن يعنوا عناية عظمى بتجنّب هـذا الخلق الضارّ الكامن في طبعهـم، وألا يخضعوا لتأثير البيئة في هذا الشأن، وأن يسعوا دائمًا لتقييم الحوادث في ضوء موازين القرآن والسنة، وليُعلم أبدًا أن الميل للإفراط والتفريط ابتلاءٌ ملازمٌ لنا.

لـذا ينبغي أن يكبح الإنسان جماح إرادتـه، ويبحث عن الطرق المؤدية للكمال الإنساني في الدين الـذي ارتضاه الله بقولـه: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾ (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٣/٥)، وأن يسلك في تلك الرحلة صراطًا سلكه النبيون والأصفياء والأولياء ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، كي يبلغ المنزل المقصود، وإلا قد يخسر في وقت هو أدعى للكسب.

openkandil.com